شبكة فرعون

رواية ل..

محمد الشطوي

العنوان: شبكة فرعون
الصنف: رواية
المؤلف: محمد الشطوي
تنسيقات طباعة: م. هالة محمود
مقاسات الكتاب: ١٤*٢١
عدد صفحات الكتاب: ١٠٨
طبعة أولى: ٢٠١٨
تصميم غلاف: م. أميرعبدالوهاب
الناشر: النوارس للدعاية والنشر
رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية: ٢٠١٨/٢٢٩٩٨

الإسكندرية ش ٤٥- ميامي ج.م.ع
ت: ٠١٢١١٩٩٩٠٨٩ ٠٣/٥٤٩٠٩١١
Elnwares.advertising@gmail.com
للتواصل على فيس بوك
/https://www.facebook.com/groups/322676661399274

لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه بأي طريقة ورقية أو إلكترونية إلا بإذن خطي ومسبق من المؤلف..

ساجيًا..

ما رأيت الليل..

سمعت شخيره رافعًا تنورة ليل التبانة حد الصُّرَّة.. صاح مجذوبا خلف السائق: – يا هووو..!!

في صحن كفه الضخمة نثر نجومه، وحبات عقّد المحار واللالئ، وبذر على المشاة تراب مقبرة فرعونية، انحدر صوت الرجل من علُ يتبعه صليل وهدير، لم ينس فصولا بارزة وباردة في أجندة خلق الله منذ جريمة الأخوين قابيل وهابيل.. محمولا في الغرابيل.. جاء الليل حالكا مدلهما يطرد الضياء من الأرض، ويعمق من جذور الخوف، ينادي بملء فيه: ماعندنا عرائس أغراهن "أبو البقاء" من تراب الفراعين هبَّ مترنحا تحت قبة النخلة وغيرهُ قد خرَّ تَعِبًا.. أو راح هباء.. إليكترونيا انفتحت على مصراعيها البوابة الضخمة لقصر المرجان لصاحبه (أبو البقاء النرفي) الشهير بـ (النِّفْرِي)، عين أعيان محافظة سوهاج ونائب إحدى دوائرها لعدة دورات برلمانية..

دخلت السيارة (المرسيدس) السوداء، التي لا يمكن لأحد خارجها أن يرى شيئا بداخلها.. مرقت السيارة بهدوء الناسك وجمال الواثق بين أشجار الحديقة الخاصة وتحت ظلالها الوارفة، وأفيائها المعبقة بفوح أزاهير الليمون والبرتقال والرمان وغيرها من الفواكه،

والورود التي لا يمكن لها أن تتعايش وتربو وتزهو إلا منسجمة مع أجواء المنطقة وبيئتها القارية.. (كان من الواضح أن القصر في منطقة منعزلة في ضاحية من ضواحي سوهاج، ووسط مزارع خاصة مقسمة ومنسقة بعناية هندسية خاصة).. وقفت السيارة بمنعرج أسفلتي للدخول والخروج تحت واحدة من بواكي القصر الأمامية.. ترجل السائق النوبي ذو"اليونيفورم" البترولي والمحلى بأزرار ونجوم في لون الذهب ولمعانه؛ لتبدو البدلة كصفحة ليلة شتوية صافية تأتلق فيها النجوم، وتقول لمن لا ينتبه"ها أنذا!!" سيما وأن بدن السائق بدن حارس رياضي حريص لا يُوصَى.. خلع قبعته، انحنى ليفتح باب السيارة الخلفي بأدب واحترام شديدين (هكذا تعلم وتدرب فحظي هو الآخر بالمحبة والتقدير).. ترجل السيد النائب"أبو البقاء النفري" كأنه موجةٌ من عطر راقٍ، أو باقة من ورد تنز وريقاتها عبيرا وفوحا.. مر سريعا إلى الداخل معتادا ألا يهتم بديكورات المدخل إلا إذا لمح شذوذا في أحد مفرداته المختارة بعناية واهتمام من أرقى بيوت الديكور والمتاحف.

يعرف السائق واجباته بعد نزول سيده؛ إذ عليه أن يستدعي الرجال من الخدم أبناء جلدته ويحملهم كل ما في حقيبة السيارة من أغراض ومشتريات.. الشيء الوحيد الذي يعنيه حقيبة اليد الدوبلوماسية الخاصة بصاحب الفضل والنعمة

عليه وعلى أولاده بل وعلى أهله.. لا يمكن استيعاب كم الأثاث والتحف واللوحات والثريات الموجودة بالصالة الكبرى في الطابق الأرضي للقصر الذي بات صاحبه في قلبه، خلع عباءته الجوخ الإنجليزي، ونظارته السوداء فبدا في صحة جيدة ونشاط لا يعبر عن سنوات عمره البالغ النيف والخمسين عاما، صعد الدرج الداخلي متجاهلا المصعد الكهربائي، عند أول درجة يصعدها تذكر أولى درجات صعوده في الحياة عندما كان طالبا في دبلوم المدارس الزراعية، وقبل تخرجه من كلية الزراعة التي أكمل فيها دراسته بعد الدبلوم، كان حينئذ يكاد معدما؛ فأبوه ذو عيال، فلاح بسيط وعلى قد حاله، من هنا قرر أبو البقاء أن يعتمد على نفسه فتاجر في الطيور والأرانب ثم الماعز والغنم وشيئا فشيئا كبر وصعد أكثر من درجة ليتوسع في تجارة الماشية؛ فتعرف على تجارها وعلى مواعيد وأماكن أسواقها، وفي سرعة البرق ارتقى ليشتري مزارع أبقار وخيول ومناحل ويجعل اسمه يتردد في كل أنحاء الصعيد كتاجر كبير لا يبارى؛ مما جعل القوات المسلحة تتعاقد معه على توريد أنواع معينة من المواشي لزوم مطاعمها، كذلك بعض شركات الطيران، والمستشفيات الخاصة..

توقف عند البسطة الأولى ليفرد في ذاكرته صفحة صعوده في تجارة الذهب؛ التي حين دخلها تاجرا هبطت أسعاره لتعود للارتفاع

والصعود بعدما أظهر الجديد في نوعية المشغولات الذهبية لتصير أدق وأبهى، غير في نوعية محلات الذهب وديكوراته ليكون محله في المحافظة هو المحل رقم واحد، حمد الله وتوقف ليبن لنا ولنفسه أنه وفي السر تزوج من سيدة في الزقازيق شرقية، كانت متزوجة قبله وعندها ولد وبنت، أحبهما كأنهما من صلبه ولم يبخل عليهما في شيء حتى بعد انفصاله عنها، وله زوجة أخرى في القاهرة لا زالت على ذمته ولم تنجب؛ أما الثالثة زينات أم سامي راقصة تحترف المهنة في لندن حتى الآن وتهتم بابنها منه حتى تخرج برعايته ورعايتها من جامعة اكسفورد مهندسا معماريا حين أراد الزواج طالب أمه باعتزال الرقص لأنه سيتقدم للزواج من "مايا" ابنة أستاذه في علم الحضارة "السير ماتيا، كان السير متأثرا بالحضارة المصرية القديمة، وقد زارمصر كثيرا محبا ودارسا، هو أول من أشارعلى والد سامي بالاهتمام بالآثار المصرية بشكل ما، وكان إلى أن أصبح النائب البرلماني من أهم تجار الآثار ففتح بازارات في القاهرة والاقصر وأسوان ليغطي تحتها نشاطه الأضخم والأهم في التنقيب والتهريب وجعل من إخميم منبعا لا ينضب تحت سرية تامة، وبمعاونة بعض رجالات الدولة المهمين، حَجَرِيَّةٌ، أَنْفَاقُ قَلْبِه تتَشَقَّقُ مَنَافِيَ وَأَخَادِيدَ لقليل الماء في شرايينه جَنَادِلُ بازلتية صماء في رأسه، تصيح بالرجل:

- مَهْلًا تَرَفَّقِ، أَرَاكِ إِنْ رَحِمْتِ، أَبِدْتَ، وإن تنازلت سحقت، وَسُؤالُك الذي لَمْ تَزَلْ تنَاورُ به لتخرس محاورك لا لتقنعه

- مَنْ ذَا الْذِي فِي الأَعْمَاقِ غير عِرْبِيدُ؟

صار بعد حصوله على بكالريوس الزراعة أخطبوطا يمد أذرعه القوية في مفاصل، تفاصيل خرائطه الخاصة، والخريطة العامة للدولة المصرية بما فيها محيط دائرته الانتخابية دون أن ترى ذراعٌ منها الأُخرى أو يصطدم بعضها ببعض، بل لا أبالغ إذا قلت إن بعض أولاده يلتقون في مصالح لهم، أو له وهم يجهلون روابطهم وجذورهم، إنه عنيف وقاس مع من يحاول حشر أنفه فيما لا يعنيه"المصلحة شعاره أولا وقبل أي شيء،"ما لقيصر لقيصر، وما لله لله"، وعلى الجميع أيا كان موقعه، أو منصبه، أو صلته أن يحقق هذا الشعار أولا، وقبل أن يلتفت إلى مصالحه الخاصة الكل يعلم ويحفظ عن ظهر قلب أنه واحد عادي، وعادي جدا ضمن الآلاف في سفينة"النائب"ودائرته، له مكانه وله دوره فيها، وكل شيء محدد وفق آليات وتوجيهات رئيس واحد هو دائما وأبدا "أبو البقاء النفري"، "لن يريكم أبناءه كما يراهم"، إنهم عنده كحدائق، تتراكض في المدى يانعة، وبلا أسماء، له طريقته الخاصة في استدعائهم؛ حرصا منه على عدم التعريف بهم، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا..

هكذا- ومن كثرتهم - يناديهم؛ فمنهم من ينهض ويلبي؛ ومنهم من يتقاعس وينزوي تحت أجنحة التدليل في مخدع أمه.. وغالبا ما يهمله وينساه.. أولئك هم أبناء النفري الحدائق، وتلكم زهوره من بلغ ومن لم يبلغ الحلم ولم يفطم؛ إنه - ورغم كل هذا- يعتز بهم جميعا ككل أب، وككل صعيدي متعصب للكثرة، والعزوة.. إنه سعيد بذريته واعتبرهم زجاجات عطر خاصة ومميزة حتى لا ينبغي لأحد غيره أن يقترب أو يحاول شم شذاهم على طول المدى..

كان سعيدا لا شك لخبر يحمله لابنه "رشدان"، المقيم معه بقصر المرجان مع أمه "بهيجة" آخر زوجات النفري، أجملهن علما وشكلا وأصلا وابنته الجميلة"روان"، الخبر لا شك أنه سيفرح الجميع، (بارع هو في إخفاء زوجاته وأولاده عن بعض)، انتظرها حتى خرجت من الحمام تفوح منها رائحة "الشامبو" الراقي لرقي منشأه، وغلو ثمنه.. قبَّلها سعيدا ومنتشيا.. ثم قال لها:

- مبروك.. رشدان نجح وبتفوق.. إنه ولد مختلف..

- صحيح.. ابن أمه وأبيه.. أتمنى أن أراه باحثا مجددا.

وأطلقت زغرودة أسقطت البشكير من على رأسها وفتحت ثوب الحمام من أعلى فبان جمال صدرها؛ فقد كانت أصغر من زوجها بخمسة عشر عاما؛ والنعمة والرفاهية تبدوان عليها؛ فتظهر شابة؛ وذات حيوية.. وهي تنتمي في أصولها إلى عائلة شركسية

ممن وفدوا على مصر إبان حكم الأتراك؛ والخلافة العثمانية.. وقد استقرت عائلتها في عاصمة الدقهلية ومازال بيتهم على النيل في أرقى أحياء المنصورة وهو البيت الذي شهد زواجها بأبي البقاء منذ خمسة وعشرين عاما نتيجة اتفاق الأبوين رحمهما الله وهما في الطائرة عائدين بعد الحج من الأراضي المقدسة.

- ماذا ستفعل ياباشا ؟
- حفلا كبيرا يليق بنا جميعا وفيه نكشف عن أهم بحوثه العلمية. الجامعة الأمريكية، جامعته، لا تريد التفريط فيه كعالم نبغ تحت سقفها، وفي رعايتها، سأدعو كبار رجال الدولة ومنهم وزير الخارجية والبحث العلمي لندرس مستقبل ولدنا، دعيني أذهب إليه وأبشره.. - أظنه لا يزال نائما.

رفعت يديها إلى السماء، حمدت الله وشكرته ومسحت من على خدها دمعة فرح، ثم غيرت ملابسها واتجهت إلى القبلة وصلت لله ركعتي شكر، وأكثرت من الدعاء لابنها وابنتها وزوجها، هذا اللون البللوري للفرح، الذي هطل على غير موعد ما هو إلا لمعان لتفكير هادئ ينسال مرطبا الوجدان، منشطا الآمال ولا يتوقف عن إثراء الأحلام، ودعم الطموح والاستمرار، أرى مطر الأرزاق يسأل نفسه وهو لم يزل يتكون في رحم السحب وغيومها:

- من سيسقي، ويروي؟.. ومن سيغسل، ويطهر؟..آ.. ومن سيوحل ويعرقل؟..

هدأ المطر ليصير رذاذا من عبير ونسم وبلا نشاز، حبيبات، زخات بين الصوت وبين الصدى يعزف بإيقاعته كما لم يعزف من قبل، وأزاحت بِرُقِيٍ وجمال كل الأوركسترات المهرولة في جو السماء.

عبر محطات مكشوفة يختبئ البعض لا لسبب إلا لأثرةٍ أو أنانيةٍ؛ والبعض الآخر يبرز متحديا حتى يعتاد الألفة، ويستأنس وحوش الغَرابة، لعل(النفري) الرجل المرموق قد نجح في فرض سرية تامة على نشاطه الواسع والعميق في التجارة والزراعة وغيرها من أنشطة غير منظورة؛ لما فيها من خطورة على سمعته وسمعة شركائه من رجال الدولة المهمين بما فيهم حكام أو أقارب الحكام، ومن قضاة ووزراء ورجال أمن ورجال أعمال، ومنْ أخْفَى أسرَارِهِ (كثرة زيجاته وكثرة أبنائه الذين مكنهم في كثير من الأعمال كتجارة الأسلحة والآثار، والعملة و..وأحيانا المخدرات)، وكله من بركات الغطاء البرلماني وقبته العظيمة...

لقد أَنْجَبَتْهُ الْغولَةُ؛ قَطَعَتْ خَلَاصَهُ تَحْتَ مَطَرٍ ثَلْجِيٍ لَمْ يَرْتَعِشْ ولَمْ يَنْفَطِرْ، عَقَدَتْ عَلَى سُرَّتِه بِالْمِلْح القذَرْ؛ حَمَّمَتْهُ بِلَيْلٍ فَاتَهُ ضَوْءُ الْقَمَرْ قَبْلَ بُزُوغِ نَوَاجِذِه قَطَعَ حَلَمَاتِ صدرها زَبِيبًا مُشَهِّيًا الْحَلِيب أَرْضَعَتْهُ وكأنها ترضعه النَّبِيذَ النَّبِيل، شَبَّ عملاقا ماردًا لَا تُوقَفُهُ

الْأَبْوَاب، ولا تصده موانع، هو الفَائِزٌ دَائِماً فِي اخْتِبَارِات الْمَسَافَات الصعبة والطويلة، وما أكثر ما اجتازها كشَبَحٍ لا يُرَى ولا يَعْبُرُ فَي السَّدِيم، يَصْعَدُ الْمَنَارَةَ مُتَوَضِّئًا بِالْخَمْر الشَّرِيفَةِ، يَجْمَعُ لِلصَّلاَةِ كُلَّ أَبْنَائِهِ، وأتباعه في شبكة الفرعون الذي يرفع دائما شعار النُّسَّاك، ينظمون خلفه خاشعين.. تأمين ركوعهم الدائم:

- "ما لقيصر لقيصر؛وما لله لله"

انحنت أمه والشوق بعينيها.. قبلته.. عرفته بالوشم المرسوم (قَبَّةً) على صدره.. نَطَقْتُ بعد القبلة الطويلة:

- يآهووو.....هـ!!

في الطريق إلى غرفة ابنه دق تليفونه المحمول، لمح اسم أخيه"شندي"على الشاشة، تغير وجهه وتوقف ينفخ بعصبية، رد عليه بضيق:

- "نعم يا سيدي..؟

- .....

- إن شاء الله

- .....

- حاضر ياخووي

- .....

- في أحسن مستشفى يعالج

- .....
- شندي.. شوف الدكتور إللي يعجبك وتطمئن له، وأنا تحت أمرك وأمر ابنك مرتضى.. إنت عارف إنه حبيبي ربنا يشفيه.
- .....
- وعليكم السلام

أغلق الهاتف وفك قبضة يده في الهواء بعصبية وكأنه يذب حشرة ملحاحة..

(شندي) الأ خ السادس من عشرة أشقاء أكبرهم "أبو البقاء" {أربع بنات وستة رجال كلهم تعلموا وتخرجوا وتزوجوا إلا هذا الـ شندي}، مات أبوه وتركه صغيرا أمانة في رقبته، شندي قصة وحكاية تاريخية لاختيار اسمه؛ ففي ليلة السابع من مولده وُضعت شمعةٌ واحدة في إبريق فخاري يحمل اسم شندي؛ والعادة أن توضع ثلاث شمعات بثلاثة أسماء في ثلاثة أباريق؛ التي يطول عمرها وتصمد مشتعلة للنهاية فالمولود يحمل الاسم الذي سهرت عليه، في نفس اليوم بعد حفل ميلاده التقليدي فتحوا وصية الجد الأكبر الذي كان جنديا في جيش "طوسون" باشا قائد الحملة التي جردها "محمد علي باشا للانتقام من أهل مدينة (شندي) السودانية وحاكمها؛ لأنهم أحرقوا ابنه"اسماعيل باشا، غاب الجد طويلا ولم يرجع من

السودان حتى أتم المهمة مع جيش (طوسون)، ووضعوا لوحة كبيرة على أنقاض شندي كُتِبَ عليها بالخط العريض (كانت هنا شندي) اختفى اسم شندي من خريطة السودان حينئذٍ ليظهر في واحد من أحفاد النفري في ضواحي سوهاج وقد كان.

انتظم "شندي" التاريخي طائعا في البداية، أظهر استعدادا مما حفز أخاه كثيرا على مساعدته، حانت الذكرى الأولى لوفاة الوالد؛ ليقدم شندي أوراق فشله الذريع في التعليم، حوَّلَه أخوه ليشرف على زراعته الناجحة أصلا، على مزارع البهائم والدواجن، جاءت الأخبار عنه مؤسفة مشينة، {إهمال، سرقات، صفقات من وراء الظهر..}، استدعاه وبخه وطرده، نام شندي في الشوارع، صاحب المنحرفين والسوابق تعلم القمار تعاطي المخدرات وأشياء أخرى لا تشرف أحدا.

استدعى"أبو البقاء" إخوته ليبحثوا حالة أخيهم "شندي"، لم يحضر منهم أحد، ونفض كل منهم يده من الموضوع وتركوا أمره معلقا برقبة كبيرهم...

ذات ليلة.. جاءه جارهم الذي يملك بيتا صغيرا في مواجهة بيت العائلة القديم، والذي يقيم شندي فيه وحده بالطابق الأعلى منه، يعاني الوحدة والفراغ والأزمات المادية والنفسية الجار اسمه "تيازي" صياد سمك قديم وعجوز ماهر مفعم بالأمراض المستوطنة، أشبع أسرة شندي من صيده الوافر في حياة الوالد والوالدة رحمهما الله..

تقدم نيازي مظهرا الخجل ومخفيا الفرحة بالنسب، سلم وحيا بأدب، ثم قال:

- لنا الشرف سعادة النائب أن نناسبكم

تلفت النائب يمينا وشمالا؛ عسى أن يجد بالمكان غيره، فلم يجد، إذا الكلام له، ساعدته خبرته البرلمانية على الصبر وعلى الاستماع للآخر..

- نعم؟
- شندي أخو سعادتكم تقدم للزواج من ابنتي الصغيرة..
- نعم؟!.. طبعا وافقت يا نيازي
- من يرفض نسبكم يا باشا؟ ..
- والله انت مجنون، ترمي بنتك في النار، شندي فاسد، فاشل، بتاع قمار ونسوان ومخدرات..

قال نيازي بهدوء الصياد وصبره:

- عارف لكنه ابن أصول، ابن حسب، سيرجع معافا وزي الفل، العود الطيب يرجع، ويستقيم سريعا (١٠٠%)..
- اسمع يا راجل، أنا غير مسؤول عن أي شيء، انت حر في بنتك، لو جيت في يوم تشتكي منه لن أهتم (بصوت عال، أنا بريء من شندي يا نيازي

ضحك نيازي وعبر عن فرحته واتفاقه بهز كفيه متضامتين في الهواء.

تزوج شندي من ابنة نيازي في بيت العائلة القديم في الطابق الثاني منه، وقد لعب تاريخ زواجه لصالحه تماما؛ فقد وافق وقته وقت الذروة في الانتخابات البرلمانية؛ كان العرس بجانب الانتخابات (سرادق، ذبائح، دعاية، ترويج لفكرة" التحام السلطة بالقاعدة الشعبية"، تطبيقا لشعار الحزب الوطني" من أجلك أنت". تم العرس على خير وسعادة، وعاش"شندي" بعيدا عن كافة أفراد عائلته، ولم يتخل عنه حماه ولا حماته، لم تمض فترة طويلة حتى دشن شندي مشروعا لمطعم أسماك بأحد محلات أبيه الموجودة بالطابق الأرضي ساعده حماه لكونه صيادا، سمى المطعم (هنا شندي) للمأكولات البحرية، وبعد فترة ساعده أخوه أبو البقاء على ترخيص فرن للخبز البلدي.كتب على المخبز(رغيف شندي)، بالفعل كان رغيفا مميزا لفت إليه الأنظار؛ لم يتوقف شندي عن التوسع في مشرعاته المحيطة ببيتهم القديم ؛ فافتتح على الجانب الذي به الحديقة الصغيرة مقهى وكافتيريا "البشوات"، قسمها من الداخل صالونات تاريخية؛ فهذا صالون شندي.. نثر على حوائطه صور محمد علي وأولاده؛ ولم ينس صورة جده الذي اختار له اسم شندي، هنا لم ينس أيضا أن يكون لأخيه الأكبر(أبوالبقاء) صالونا خاصا تتصدره صورته وفي مقابلها لوحة خطية مذهبة نقش عليها بالخط الكوفي الجميل عبارة النفري الشهيرة (كلما

اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة)، آخر الصالونات وأجملها صالون كوكب الشرق أم كلثوم، وبالطبع كانت صورتها تتصدر الصالون، ودائما يصدخ بأغانيها الخالدة، اهتم شندي بكل الصالونات من حيث الموبليا الفخمة،والديكورات اللائقة والمعبرة استقرت حياته مع زوجته إلى حد كبير؛ وتطورت ماديا خاصة بعدما امتلك بيت العائلة بالكامل، ساعده في ذلك كل أخوته الرجال والنساء بالهبة أو بالبيع والشراء والفضل يرجع في ذلك لسعادة النائب أخيه (أبو البقاء)، أراحت كثيرا تطورات الحياة مع شندي الجميع، النائب وأخوته، أنجب (شندي) بنتين وولدين أحدهما (مرتضى) من ذوي الاحتياجات الخاصة.. عظَّمَ سعادة النائب من قيمة ومكانة مقهى البشوات إذ جعلها مقرا شبه رسمي لتواجده بين الناس، يستقبل فيها مُريديه، وناخبيه من أصحاب الشكاوى، والمطالب يناقش، ويحاور زملاءه وأحيانا المحافظ تحت صور من التاريخ والمجد، تطول الجلسات أو تقصر تحتد أو تهدأ، بات المقهى معروفا بالبرلمان الخاص، ولم ينس في كل جلساته الخاصة ابن أخيه المعاق (مرتضى، كان يستبشر به، بل كان مرتضى رمزا وقيمة في صالون عمه النائب..

في الطريق إلى غرفة "رشدان" قابله "فضل الجناينيْ" بقامته المحدودبة وعمامته المضطربة، وتاريخ طويل بحدائق قصر المرجان، كان

زائغ البصر، سأله النائب: – مالك يا فضل؟

أجاب باقتضاب وحذر فيهما شيء من إرادة التغابي أو التذاكي

- النخلة إياها سعادتك.. عادت للذكر والتمايل.. مرة يمين .. ومرة شمال.

ضحك النائب وأخذه من يده صائحا مقلدا المجاذيب:

- مدد سيدي أبونخلة (مدد يارطب) ..

حوض أرض الساقية على مسافة (٣ كم) من قصر المرجان.. الساقية تتوسط أراضي عائلات:

١ – النفري جنوب ترعة(أم الشواشي) بدءا من الساقية والنخلة لحد مدخل القصر .

٢ – وأرض الشيخ ريحان برهامي شمالا في مقابلة أرض النفري كأنها امتداد لها

٣ – جاسر أبو سويلم شرقا

٤ – ثم شيرين يلمظ طرب زادة غربا

أربع عائلات تتملك أراضي حوض أرض الساقية، كأنها تملك الدنيا، وكل عائلة تسعى للسيطرة والهيمنة والاستبداد.. شعار كل عائلة "أنا ومن بعدي الطوفان"، تاريخ طويل عند الساقية، وحول الأرض الموعودة بالصراع الذي لا ينتهي، لم يزل هذا التاريخ نضاليا ثم دمويا، انتهى بمصرع محمد أبو سويلم علي يد أحد

أبناء التركي "يلمظ باشا" وللآن لم يهدأ هذا الصراع بين الأحفاد على الجانبين الشرقي والغربي.

أما عائلتيْ النرفي وبرهامي على الجانبين الشمالي والجنوبي فالتفاهم والمصلحة المشتركة جمعتهما قديما لتكون أراضيهما بمثابة العمود الفقري لحوض أرض الساقية وللآن "صراع الأرض هو صراع التفوق والبقاء"...

كانت النخلة الطويلة جدا في أرض النفري تسلم نفسها للريح لتتلاعب برأسها وثمارها، أصاخ السمع، خيل إليه أنه يسمع ذكرًا وتكبيرا بالفعل، لم يتمالك نفسه فسلم بدنه وخلفه الجنايني لحلقة ذكر حول النخلة المباركة.

إننا نحن –المصريين الريفيين– نعتقد في قوة الروح اعتقادا يصل إلى حد اليقين، ومن الأهمية بمكان الانتباه القوي لإدارة مملكة الأرواح؛ فهي تتطلب نوعيات خاصة من البشر يتجلى فيهم الحنو والتضرعوالتسليم.. ها هي النخلة تنضح منذ زمن برائحة (الفوضى) شأنها كأي شيء حولنا، كثيرا من نجاحات البعض تكمن في إحسانهم اختيارلحظة الفعل؛ الفارق دائما فيمن يمسك باللحظة جيدا..، آ...أصحاب الأرواح والكرامات تتجدد سلالتهم "العار" قديم ومتوارث منذ مئات السنين، الآباء والأجداد ثم الأبناء، لقد شربوه حتى الثمالة، استمتعوا بما فيه من الحضورالجاذب والمجذوب..

حضور يتماهى في عناقيد من تعاطي كثيرا من أنواع الطقوس الخاصة حول البخور وفوحه وفي سمو كلمات الابتهالات وأغاني الفولوكلور الشعبي، الكأس الآن مهيأة لجيل جديد بزعامة النائب البرلماني، والعضو البارز في حزب الرئيس مبارك وجماعته؛ ثمة مصالح مشتركة تجمع ما بين السماء والأرض..!، في يوم قريب جدا الناس ستصحوا من النوم على دقات الدفوف وأهازيج المديح، سيصحون في غاية النشاط الروحي والنفسي ليسدد كل واحد ما عليه من حساب العار المتوارث.. و..مدد..!..

بصق (النفري) على المكان هازئا، ثم عاد وبصق لكنه سرعان ما جذب نفسه موبخا إياها ولم يلتفت حتى استغفر واستعاذ وحوقل، السيد يحوقل، رذاذ حوقلته يملأ المكان حوله قد تصغي إليه النخلة والساقية، لكن.. لا أحد يسمع ما في جوفه.. الصورة المرسومة للمكان تتداعى، لا شيء عدا الفوضى، عليه أن يجتهد في المحافظة على هيبته وعلى ما ينبغي له من البراءة والنقاء، أكثر الناس على هذه الأرض دائما هم في حاجة إلى هذا النوع من الإيمان، والأخيار يتميزون عمن سواهم فيما يريدون وفيما يطمحون؛ إنها رؤيا الغد تقترب وتتضح، من هنا من تحت جذع هذه النخلة تبدأ الهجرة الثانية إلى الله، (تبهرني الفكرة لأنها تأتتينا من شواشي الروح)، يحملق (فضل) زائغ البصر كضوء شمس

الخريف، يرتج عليه الأمر ويكتنفه بلا شفقة، طبعا فلا قيمة للبصر إذا عميت البصيرة، يحرك فضل مؤخرته ببطء كسلحفاة عجوز، بينما العصافير من فوقه تحلق وتزقزق بأجمل ما منحها الله، مرة أخرى يعم الضوء فينسخ ما يلقى الصمت من هجوع وغيوم، تمنى (فضل) أن يفهم بأن عهدا من الزمن الرمادي يتحرك في بطن هذه المنطقة، بات الأمر لديه وكأنه كابوس يطارد وعيه المحاصر والمحدود إن روحا جديدة ستولد أخيرا وتعم بركتها "حوض أرض الساقية"، كلم النائب فضلا وكأنه يكلم نفسه:

- المكان ساحر.. مفعم بالجمال قبيل الغروب.. ما أجمل بلادنا تحت سيطرة الاعتقاد والأنانية
- أتحس هذا الجمال يا فضل؟
- سيدي.. نعم ولا أجمل!!
- علينا ألا نتأخر في مشروعنا
- البركة فيك يا باشا

يصمتان، والشمس الغاربة تلملم آخر خيوط غزلها الناعم الواهي ترف كطائر يعود منهكا أمام باب عشه، أخذت الرجلين نشوة الفكرة فتخيلا المكان وقد تحول إلى ساحة مباركة تغص بالمريدين وأصحاب الطرق الصوفية من كل فج عميق، دار أبو البقاء حول نفسه كلاعب التنورة، وتبعه فضل،"لا ينبغي لنا أن نبدد حلما

يمكن أن نسعد به أو فيه؛ حتى لو نُعتنا بأننا لا نتمتع بدين ولا أخلاق، لقد تعلمنا أن الذي بلا أخلاق: هو من يملك أن يفعل ما يحب ولا يفعله، لم تعد الأخلاق علاجا"!، أفاقا، استردا وعيهما جلس(أبو البقاء) على مقعد قريب مصنع من جذوع الأشجار، قدم له (فضل) رطبا من سقط النخلة المباركة، أخذ واحدة منه مسحها، سمى الله وأكلها، ثم قال: – الحمد لله.. اسمع يا فضل

– نعم

– أرضنا هذه وفيها النخلة ستكون طريقنا لفرض ما نريد على الآخرين.. سننهي صراع البقاء على الأرض هنا بطريقة جديدة وذكية {طريقة الفوضى الخلاقة}.. سمعت عنها يا فضل؟

– لأ يا باشا

– حفيد أبو سويلم لازم ننسيه جده (محمد أبو سويلم) وحكاية تكرار ما حدث، والأتراك (أولاد غازي يلمظ).. ما عاد ينفع معاهم العنف والهجانة.. السياسة لازم تنسيهم حلم العودة والإقطاعيات

أمال احنا بنعمل إيه تحت القبة؟

– اسمع يا فضل حلم الشيخ ريحان وحلم جده برهامي (البرهامية) لازم يتحقق، (جامع كبير وضريح فارغ..! لا

مثيل له؛ ومقام بقبة خضراء في ضخامة قبة سيدنا النبي "عليه الصلاة والسلام" للشيخ المبارك (أبو نخلة) ومولد وذكر، من يحب الكلام دا يا فضل وراح يساعدنا على نشره في الناحية والمحافظة؟

- من يا باشا؟.
- كونداليزا رايز..
- نعم ؟!!

ضحك النائب بقوة وقال:

- قصدي يا ولد الشيخ ريحان برهامي.. موش هوا صاحب بقاء وانتشار اسم الشهرة (النفري) بدل النرفي؟
- صحيح.. لكن مين النفري ياباشا؟
- هو وأحد أقطاب التصوف، لذا فرحت باسمه ونسيت النرفي
- النفري وأهل التصوف والدروشة مطيتنا لعمل كل اللي عايزينه.. قرأت أنا عن القطب (الشيخ النفري) وقد أعجبتني طريقته في التصوف حين تبنى تطبيق مقولته: "كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة".. منهج في الكلام ومنهج في الفعل.. يعني قَلِّلْ من الكلام وكتر من الفعل.. بعد بكرة تجيب لي الشيخ ريحان وتبشرة بالطريقة البرهامية والنهارده" مدد يا رطب، بكرة، مدد يا نفري

صاح فضل:

- مدد سيدي النفري
- بعدين يا ولد.
- سأكلف شركة مقاولات كبيرة بتنفيذ المخطط

قال فضل مقتنعا: - مدد.. مدد مولانا أبو رطب

ضحك النفري وانصرف سعيدا بفكرة الفوضى الخلاقة وأنها ستريحه من جيران السوء، وتزيد من هيمنته، وفكره عليها..

قبيل توجهه لغرفة ولده.. رن تليفونه طويلا.. سأل:

- المجلس؟..
- نعم ؟..
- جلسة مسائية طارئة؟ خير.. علم وينفذ

رشدان".. خريج الجامعة الأمريكية.. وقرة عين والديه وكأن الرجل لم ينجب غيره مع أن نسل النفري وفير، ويمتد من صلب هذا الرجل في عدة ترائب مصريات وغير مصريات وإن كان لا يبقي على ذمته الآن إلا "بهيجة" أم رشدان المقيمة معه في قصر المرجان.. وفي وعيه الباطن طليقته الأولى "سيدة" بنت الشرقية التي تزوجها مطلقة من"عبد الحميد النواوي" مدير ثانوية الزقازيق، أحبها وأحب ابنها "عصام وابنتها "إيمان"، لم تنجب منه، لكنه لم يبخل عليها ولا على أولادها بشيء حتى تخرجا فانفصل عنها

جسديا وما زال يسعد بنداء عصام مدير أحد فروع بنك استثماري كبير في القاهرة، وإيمان الطبيبة جراحة القلب وأستاذة أمراضه بطب المنصورة، رباهما تربية حسنة، أحبهما وأحباه كأبناء الأصلاب وأكثر، ما زال يسعد بندائهما له.. "بابا"، لقد ألفتنا المرايا كما الأبواب والنوافذ، الشاشات والمجالس، صرنا كالضمائر اللغوية المتصلة لا تُرى إلا على شكل واحد، ووتيرة واحدة.

جلس الشاب"رشدان"على المقعد الأثير في غرفة مكتبه المسماة ب(المقشرة) وهو كالعادة مغلف بالقتامة والحسرة، تلعثم تائها تحت الثريا التي ترسل من عيونها الزجاجية ضوءا شاحبا يملأ المكان بحبيبات الضيق والنفور، خزانة الكتب العتيقة من أشد المتلعثمين في أبجدية وجودها ملضومة بأسلاك النت وأجهزة الاتصال والإرسال، كم حاول التغيير والخروج والانطلاق!..

جسده ينم عن فتوة وصحة، وملامحه التركية المصرية ترسمه شابا وسيما، كما يرسمه عقله في هيئة العلماء والمفكرين؛ هذا ما جعل مريديه وعاشقيه يرونه بين ممتلئ بالحيوية والشباب وحركاته وبين ذوي الوقار والاتزان والحكمة، النوعان متوفران في رموز صحبته، اجتهد في التبرير والتفسير، والاقتناص لحالته الآن، لكن دخان علبة سجائره (الأولى) كان يحيطه بسحائب كثيفة من حلقات دخان، متقاربة، متباعدة، والسعال اللابد في حباله

الصوتية يرهقه ويشرخ نبراته، ثم في النهاية لا مفر عنده من التراجع والخمود، وجد من يتفل في المطفأة ثم يعود للرف بجوار عظماء الصعاليك في الجاهلية، والعلماء في العصر الجديث، ابتسم لتخيله.

تواترت ظلال بعض الكُتَّابِ والمؤلفين والمؤرخين أشبه بأشباح وصور مصحوبة بفرقعات رماح وسيوف، طائرات وصواريخ، ومحاربين مدرعين ارتمى فرسانهم وقادتهم كقطع الشطرنج التي لم يعد لها دور، أغلق "رشدان" عينيه على ما بها من محاجر ودموع، لم يتوقع هذا الحصار، ولا هذا الليل الذاخر بالهواجس والخوف بعد نجاحه في إخراج بحثه العلمي من بطون الكتب وأمهاتها على أجمل وجه، بصدر مضطرب عاد للمقعد الأثير هو كالعادة مغلف بالقتامة والحسرة، سمع هاتفا يقول له بإصرار وعمق:

- رشدان.."أبشر، أبشر"

تنهد متفائلا، مد يده، التقط ملف بحثه في علوم الآثار الفرعونية وهو: تصنيف علم الآثار في القارة الأفريقية (جنوب مصر)، فرعٌ من علم الإناسة (الأنثروبولوجيا) البشري، تراث الإنسان الفكري والمادي، "أَحْلَامُنَا الْكُثْرُ تَصْهَلُ فِي الْمَدَى مُهْرُ مَا اخْتَرْنا لَهَا عَنَاوِينَ" هِيَ، كَمَا هِيَ فِي حَدَائِقِنَا تاريخ وعلم وأثر، تَعْشِقُنَا؛ فَنَعْشَقُهَا؛

تَعِيشُ فِي حَوَاصِلِنَا طُيُورُهَا الْخُضْرُ مُلَوَّنَةً فِي توابيت زينَتِهَا كَأَسْمَاكٍ يُغَازِلُهَا الْعِشْقُ وَالنَّظَرُ، مَرَّةً، تُصَعِّدُنِا وَأُخْرَى، تُدَانِينَا أَمَالَهَا فِينَا، -بَعْدَ اللَّهِ- النَّهْيُ وِالْأَمْرُ؟،" دخل أبوه عليه، أسرع رشدان خفيفا بفتح النافذة البحرية ليطير الدخان، لم تغب عن الأب الرائحة، ابتسم ومازح ابنه: – من شابه أباه فما ظلم يا دكتور؟

رد رشدان في خجل:

– دكتور؟!..مستعجل عليَّ أنت يا أبي

– لا..استعد بعد انتهاء دورة مجلس الشعب الحالية سنكون معا في أمريكا وفي وكالة ناسا وبعدها نخطب ونتزوج

– أرجوك يا أبي..

لم يمهله..

– العروسة جاهزة وهتموت عليك

– أبي؟!!..

– إنها بنت أخت الوزيرة وهي من هي في (حريم الهانم) مال وجمال ومناصب والله أعلم بعد التوريث الدنيا هتمشي ازاي؟

– الله يخليك يا والدي، أنا رجل أثري، أموت في المومياوات وفي التحنيط، اتركني وما أهوى وأنا من بعد"إيسار" زميلتي، لن أهوى.

- إيسار..؟(قالها الوالد وكأنه يتحسر على ولده) ثم أضاف محاولا صرف خاطرة العشق التي لا تزال تطارد ابنه، مصرة على ألا تفارقه
- على فكرة يا رشدان.. لازم تروح (اخميم) بعد يومين فيه اكتشاف مهم لك في سلسة بحوثك وتوثيقك العلمي والتاريخي لاكتشافاتنا في فن التحنيط القديم كأنهم وجدوا إحدى خامات التحنيط المهمة.. خللي بالك الأجانب يتربصون بالمكان وبالمحتوى لكن رجالنا صاحيين، وفي غاية اليقظة.. أتركك الآن لأني مسافر لحضور الجلسة المسائية الطارئة لمجلس الشعب
- خيرا يا أبي؟
- فيه ميول قوية في الحزب الوطني لتعديل الدستور الحالي، وبعض القوانين لصالح عملية "التوريث"
- يعني جمال مبارك الرئيس القادم أو بعد القادم شئنا أم أبينا.
- على فكرة العملية هذي موش هتعدي على خير.. ما حدش واخد باله من النار التي تتأجج تحت الرماد.
- رشدان.. سلك أمورك يا حبيبي "المصالح بتتصالح"
- وكله "لأجلك أنت".. ربنا يستر.

غادر الأب المكتبة أو المقشرة كما يسميها رشدان، في منتصف

الليلة التي بُشر فيها بالتفوق والنجاح غزا الفتى الملل والضَجَر، انكب على كتابٍ طريفٍ في تخصص بحثه التاريخي كانت الطرائف جديدة، وغريبةٍ عن مَعارفِه المتعددة؛ ليكتشف أنها حقائق علمية في كتب منسية ولا يلتفت إليها الباحثون، ولا حتى القراء من راغبي التسلية الثقافية، مالَ برأسه كِأنهُ يغفو تكرر ذلك حتى تناهى لسمعه صَوتُ دَقات على باب غرفة أبحاثه ومعمله العلمي والتي يسميها مجازا "المقشرة"، والمقشرة أشهر سجون المماليك لم يُعِرْ ما سمع اهتماما وواصل تقليب مرجعه التاريخي بيده، في الوقت نفسه يدون ملحوظاته في بطاقات رقمها ولونها حسب ترتيب أهميتها العلمية والتاريخية، تواصلت الاحتكاكات أو الدقات كأن أحداً برِفقٍ يربت على بابِ (المقشرة).. قال مُتمتماً:

- زائر على بابِ حُجرتي يَدُق –هذا الرقيق– لا يمكن أن يكون من الخدم ولا من أهلي.. اللهم إلا أن تكون أمي.

نهض بعد أن وضع مسطرة صغيرة عند الصفحة التي توقف عندها ليسهل الرجوع إليها متى شاء، فتح الباب ولم يكد حتى تسلل قطه الأسود سوادا شديدا ولامعا، ابتسم وحياه (لينو) وتابعه حتى رآه يستقر بجوار تمثال القط الأسود الفرعوني الشهير..

"في القرن السادس عشر قبل الميلاد قدّس المصريون القدماء القطط.. فعبدوا إله الحب والخصوبة المسمى (باستيت) أو باست

على هيئة رأس قط وجسم امرأة، وكان المصريون يعاقبون كل من يؤذي قطًا بعقوبة تصل إلى حد الموت، وعندما يموت قط كانوا يحلقون حواجبهم علامة على الحداد، ويحولون القطط الميتة إلى مومياوات.. وقد وجد علماء الآثار مقبرة قديمة للقطط في مصر تحتوي على أكثر من ٣٠٠،٠٠٠ مومياء للقطط"...

هذه بطاقة علمية من بحوث رشدان عن القطط في عصور المصريين القدماء وضعها عند قاعدة التمثال الفرعوني (باستيت)، القط الزائر استقر هادئا بجوار باستيت وأظهر ودا وشبقا للتمثال الذي له جسم امرأة.. تمتم رشدان:

- "كل روح محرومة تضع على الأرض جمرها أو رمادها"

توسل رشدان مجيء الصباح؛ فالكتب لم تمنحه بعد أسرارها ومحبتها فافتقد فيها السلوى، أبدى حزنه على زميلته الفقيدة "إيسار" تلك الفتاة زميلته النادرة المتألقة والتي ليس لها في الملائكة شبيه..كانت واحدة مالها ثان.

أيسار زميلة الدراسة والبحوث فتاة تركت الشمال الغربي في مطروح لتغترب من أجل العلم في القاهرة وفي الجامعة الأمريكية لها جذور بدوية أخفاها كثيرا العلم والبحث، التقت رشدان في بوتقة البحث والعلم في مكتبة الجامعة، نظر كلاهما للآخر باحترام وتقدير وكأنما أسدل عليهما العلم ستار الحياء والانصراف إلى ما في

بطون الكتب والتكاليف البحثية لم تترك لهما فرصة للنظر خارج هذا الإطار؛ ومن هنا طوت إيسار في أعماق أعماقها صفحت حب طائش مر بحياتها على رمال شواطئ مطروح، طوي رشدان ابن الصعيد مسألة النظر لنفسه كشاب وسيم وأمامه فتاة مهذبة جذابة فيها كل مواصفات الرفقة في رحلة البحث والتفوق، وحين النتبها لزغ الشيطان بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق البحوث والمذكرات، انتبه رشدان فإذا إيسار الجميلة العالمة تقضي نحبها في حادث سير أليم فنعاها تلك الفتاة النادرة والتي ليس لها الملائكة شبيه، كانت واحدة مالها ثان، ذعَرَ من حَفيفُ الستائرِ الأرجوانيةِ الناعمِ الحزينِ الغامض، امتلأ رُعبا غَريبا لا عَهْدَ له به؛ ولتهدئةِ خَفَقان قلبه إنتصَب مُرَدّداً:

- " لينو.. أيها القط الزائر في منتصف الليل أرجو أن تنتبه لقداسة "باست" وأنه الآن لا يستطيع منحك شيئا غير الذكرى، وغير رائحة مقدسة لطقوس أمةٍ آمنت بالله قبل أن تعرف الأرض ومن عليها من هو الله، وما الإيمان؟، وما التوحيد؟... استعادُ قوّته ويقظته، وزالَ عنه كسله وتردّده، وقال:

- "عُذراً زائري كنتُ غافياً وعلى وشك النوم، وجئتَ بكل رِفقٍ تَدُق على بابي، بالكادِ سمعتك"- وفَتحتُ لك البابَ على

مِصراعَيه – ونسٌ أنت، ولا شك.. لكنك لست الفقيدة إيسار.. يرحمها الله.

أطفأ الأنوار لمعت بقوة مخيفة عينا القط لينو.. حَملق في عُمْقِ ذلكَ الظلام، وقف طويلاً مُتسائلاً مُتوجّساً مُرتاباً:

-تُراودُني أوهامٌ لم تُراود إنسانا قَبلي لكنّ.. الصمتَ زاد عمقا ولم يَنقطعْ، وكأن السكون حولي صار محيطا متجمدا لا يتحرّكْ، وما كانتْ سوى كلمةٌ مَهموسةٌ واحدة، وهي"إيسار؟" هَمس الكلمة، وجاءَه رَجْعُ الصّدى"اررررررر!"– هذا ولا تعقيب عُاد إلى فراشه المهجور غالبا،عاد ونفسه جياشة، بالبحث والذكريات، وسرعانَ ما سمع ثانيةً دقاً أعلى من ناحية النافذة هذه المرة، لم يتأخر في اكتشاف أن الريح هي صاحبة الدقات الأعلى، ولا شيء ثان...

خيم السكون عميقا من جديد، أجفل رشدان والتفت لمكتبته الموسيقية، أسال نغمات عربية ثم اسكتلندية، قلَّب الاسطوانة التي بيده، ابتسم لما دار بخاطره يوما، هو أن يكتشف شيئا من الموسيقى الفرعونية (لابد أنها ستكون رائعة ومثيرة كأي شيء تركوه" ترى أكانت تملأ صمت المكان، وتبدد وحشته؟" لقد كانت على وشك اكتشاف التراث الموسيقي الفرعوني، لو عاشت ونجحت كانت ستوجد ضجة كبرى حول ثراء التراث الفرعوني وتنوعه..

لكنها اختطفت تحت عجلات سائق مصري لم يع ولن يعي فداحة ما جناه تهوره..

تلقّى رشدان من القط الزائر مواءً تَعيسًا نَزلَ عَليهِ نازلةً شديدة، أكان القط هو الآخر يستجدي حضور حبيب له غاب؟!، راحَتْ تتسارَعُ نبرات دندناته حتى غَدَتْ كأنها أغنيةٌ تتُرَدّدُ بلازِمةً واحِدة

- آاااه ..

وغَدَتْ ألحانُ أمانيهِ الحَزينة تُرَدّدُ تِلكَ النغِمةَ الكئيبة وهي:

- أ..ً، لا...آ..و.

استمر القط بجوار باستيت يدفع في روح رشدان الحزينة إلى التبسم والتشبث بفرصة النجاح مهما كان التحدي ومهما كانت الصعوبات.. (حتما سيحصل على الدكتوراه وسينشر بحثه في المجلات الرسمية العالمية)، دَفع مقعداً وثيراً قبالةَ القطِ والتمثالِ والباب؛ وبَعدَ الاستقرار على السرير، ذَهب يربط بعقلية العالم والمفكر فِكرةً بفكرة، مُتسائلاً عَمّا قَصَدَهُ القط بالزيارة ليلا؟.. فعلا ما قَصَدَهُ؟، إذ هو يموء ويقول:

- ن...ا....ووو

جَلس مُستغرقاً يخمن، ولكنْ مِن دونِ كلام مَعَ القطِ الذي راحَتْ عيناه المتقدتان تضطرمان في أعماقه حاول فهْمَ هذا الأمر وغيرَه، ورأسه في استرخاء مُستنداعلى بِطانةِ السرير المِخملية التي

يُغازلها ضَوءُ المِصباح، في الحقيقة كان المخمل الأرجواني في بطانة السرير هو الذي يغازل ضوء المصباح.. كأنه سمع إيسار تهمس له في شفافية الضوء..

-"ما كان لن يعود"

بَدا له الهواءُ يَزدادُ كثافة، ويَضوعُ بعِطرٍ من مِبْخَرةٍ خَفيّة تحمِلُها كوكبة من المَلائكةٌ، سمع وَقعُ أقدامِها على البساطِ المنقوش بلون العقيق، صوت الأقدام يقترب، يقترب والموسقى تخفت وتختفي.. صِاح:

-هأنذا رَبيَ، يا ربي امَنَحَنيَ راحة عبرَ هذه الكوكبة راحة وسَلوى من ذِكرياتي عن إيسار

كان الكأس المقدم مترعا من أجل سلواها، أنصت كأن القط يقول له:

-انس.. لن تعود لك إيسار..

صاح:

-أيها الشرير.. اخرج إلي حيث كنت.. أعندك الغيب؟ بالله.. سأراها، وسنتعانق.. ولو في الجنة، أسمعُ الملائكة تناديها باسمها الحبيب (إيسار..إيسار)

صرخ رشدان في القط:

-اخرج الآن ،ولا تسمعني صوتك ثانية ما تزحزح القط من تحت التمثال وتدفق الظل أمامه عائما على الأرض في

ضوء المصباح موحيا أن الذكرى ستظل جارية متدفقة، "إيسار، واحدة مالها ثانٍ، هذا القط غريب..!.

مدينتنا يفترش الناس فيها الأرفف الرمادية وإن علوْا؛ فخلف الشواهد الرخامية يتراصون كقطع الشطرنج الضعفاء ثم الطيبون فالحريصون على ألا يموت الملك حرصهم على ما تبقى لديهم من أمل..

مدينتنا عضو في هيئة إنسانية تتباهى بتعامد الشمس؛ وعيد الجلوس، وعرس النيل؛ وإعلاء الحجر فوق البشر باسم الذي هو في بدء الأسفار؛ وخواتيم السور.

مدينتنا.. ذات معنى ومعان، يحترمها القاصي والداني، مفتحة الأبواب في الأعياد وفي أي زمان يأتيها المغرمون والسائحون من كل مكان.. في عمق صداها تراتيل أجيال وآياتٌ وتعاويذ كهان وفراعين تحميدا وتمجيدا للفرعون الإله أيًّا كان...

مدينتنا.. لم يعد يراودها النوم إلا لماما؛ لأنها كانت تنام معلقة من أرجلها كالخفاش أيام الظلام، وعتاة الغزاة .

في مكتبه في فرع إحدى شركاته الزراعية بـ"إخميم" جلس "أبو البقاء" يرتب أوراقه، ويغلق تليفوناته غير الرسمية، أخذ نفسا طويلا وعميقا رطب به جوفه، ونظم به خواطره، وأفكاره، دخل عليه مجموعة من الرجال الأشداء يحيطون بشاب في منتصف العقد

الثالث من عمره أنيقًا وسيمًا، تلمع عيناه بالثقة والذكاء، لولا كسرة حزن تمسح جفونه وترخي رموشه الطويلة، كان الشاب مستسلما لقبضة الرجال المحكمة حول ذراعيه المقيدتين خلفه، استقام عوده بضغطة قوية في ظهره أمام مكتب سعادة النائب الذي استفسر من زعيم الرجال عن تهمته..

- خان الأمانة يا باشا..

- أية أمانه؟

- إنه من فريق الآثار.. مترجم وباسبورت

فهم أنه خريج آثار أو سياحة، وأنه مختص بالتهريب عبر الجوازات، وهذا معنى "مترجم وباسبورت"، نظر النائب للشاب من أعلى لأسفل، بدتْ رعشةٌ خفيفة تظهر تحت عينيه الزرقاوين وفوق وجنتيه اللامعتين شديدتي الاصفرار والتوجس أشار للرجال بالانصراف، من خلف مكتبه الفخيم ذي الطراز الفرعوني أشار للشاب بالجلوس، وسأله بهدوء الواثق والمتمكن:

- هل تهمتك صحيحة؟

هز الشاب رأسه بالإيجاب وقال:

- نعم.. صحيحة.

- أتعرف جزاء الخائن في شبكتنا؟

- نعم.. القتل رميا بالرصاص في الجبل وبدون دفن.

– دا كان زمان.. اليوم فيه "تابوت مونتو"..

"عبارة عن تابوت معدني يتسع لشخص ضخم، ذو غطاء محكم به فتحة صغيرة بها صفارة تنطلق عند اشتداد الغليان والصهر من قوة البخار الصاعد من تابوت الصهر؛ إذ يوضع فيه الشخص المعاقب ممددا على ظهره يغطي نصفه الماء ثم يقفل عليه غطاء التابوت الذي يينزلق من الفردوس الأعلى إلى آتون الصهر حيث يشعل تحته موقدا غازيا ضخما يصهر بهم ما في بطونهم والجلود".

– تعال شوف الفيديو..

– تابوت مونتو ممتع، لن يفلت منه خائن أو غادر، من كل الخونة شركائك في صفقة (موميا الأميرة "سيزي نجمات" صفقة ال٥٠ مليون استرليني)

– بلاش أقول لك ياباشا، ستصدم في أقرب الناس إليك.

لم يُر النائب البرلماني أبدا كما هو الآن (جحظت عيناه، احمرت أذناه، وقفت شعيرات رأسه) استفهم:

– سامي النفري؟...اوع..

– هو يا باشا ابنك ومراته"مايا" وأبوها "السير ماتيا"

أدار ظهره للنافذة وقال في نفسه:

– يا خسارة يا سامي، ضحك عليك (السراماتي) وابنته

ما ربيتك لهذا يا ابن زينات!

فكر قليلا، لكن بعمق، (مومياء الأميرة "سيزي نجمات" أتكون صاحبة لعنة؛ ففي يوم اكتشاف مقبرتها قتل أحد عشر رجلا من فريق الباحثين والعلماء، فيهم من تم قتله ودفنه بتدبير سيادة النائب ليضمن سرية الكشف وتوابعه المثيرة خاصة القطرات، البيضاء(الذهب السائل) إكسير الحياة، إنه مشروب يضمن لشاربه حياة أبدية؛ أوشبابا أبديا كما جاء في البردية التي عثر عليها في تابوت المومياء المقدسة؛ وعليه نسجت أساطير كثيرة ومثيرة مسطورة في برديات لا تقدر بمال هذا غير الذي أضافه الاكتشاف لعلم الكيمياء، وفن التحنيط).

منذُ أولِ فرعون، ذاكَ الذي تلقى في وعيه التأويل والحق والخير والجمال، وتعرّفَ على شكلِ الحياة قبل الموت وبعد الموت؛ وعلى أساس هذه المعرفة غير المسبوقة رتب كونه العلوي فوق الأرض وتحت الأرض في الأجساد وفي الأرواح، وما بين النهر والبحر، استوحى المصري الأول القصص؛ وكتب الألواح والرؤى كأنهم أنبياء يوحى إليهم؛ فيخطون ما أنزل إليهم على أوراق اللوتس والبردى، أو ينقشونها على الصخر والمعدن وجدران المعابد والمقابر، وأحاطوا بالأسرار كل ما يحويه الكشف بكل الخوف والحذر، ها هي ثمرةُ جهدِهم: المقبرة المكتشفة تحوي ثروة تفوق عدد النجوم،

وحبات الرمال في الصحراء؛ وأن الباحث والأثري المتخصص الذي يحاول قراءتها وفك رموزها وطلاسمها سوف يفقد عقله، ويفقد أهم فائدة في عينيه وهي الجرأة...

ها هُنا ذاكرةُ القرونِ العظيمةُ، ذاكرة أمة عظيمة امتلكت ناصية الحب والعلم والتحضر؛ اختصرت طريق المعرفة: الحساب والفلك، الخيال بلا حدود، لا أبالغ إن قلت إنهم تحكموا في القدر، الأعشاب، والنقوشات ذات الطلاسم والرموز، أمة إلى جانب العلم لم تتخل عن الرومانسية في العشق والشعر والأساطير، خلقت المتاهات والشفرة وعرفت الطريق إلى الله كما عرفت الوثنية، لم تتوقف لحظة عن العمل المثمر الذي لو توقف لاحترق التاريخ العظيم والحضارة الأعظم، مخطئ من مر هنا دون أن ينحني تقديرا واحتراما لكل نموذج، لكل رمز، لكل فرعون ومومياء، لكل تاريخ مذخور هنا تحت أرض مصر وترابها...

سمح النفري بنشر العادي من الاكتشاف الأسطوري واحتفظ في سراديبه ومخابئه بالأهم ماديا وتاريخيا، نصف ثمن الصفقة تم توزيعه رشاوي وإكراميات على النخبة من طبقة ممتدة كشبكة في مصر وخارجها، ابتداء من البيت الرئاسي ومجلس الوزراء ومجلسي الشعب والشورى وأعضاء مختارين من الحزب الوطني علماء وآثريين ورجال أمن وقضاة ليضمن السكوت عن كل ما حدث في

المقبرة المكتشفة من قتل ونهب وسرقات، لم ينس المتحف المصري من اختصاصه ببعض الآثار والمكتشفات.

إن ما تحت الأرض المصرية من كنوز يخرج بفعل فاعل محتضنا أسرار عظمته وقيمته، وفي الوقت نفسه يكشف عما فوق الأرض المصرية من حقارة وتدن لوجهاء ظاهرهم كالأنبياء وباطنهم أسود من الزفت.. تنهد النفري وواصل التحقيق..

- تحمل (سامي النفري) وزوجته مايا وأبوها مسؤولية تهريب المومياء وبعض التماثيل إلى انجلترا بمساعدة أصحاب الحقائب الدوبلوماسة في عدة سفارات أوروبية ولم يزل الجزء الخطير من الاكتشاف مخبوءا في مكان ما مجهول لا يعرفه إلا هو..

ها هو ذا، ما في المقبرة من رفات الأمراء، والأميرات أولئك الذين أبهرنا اكتشاف مثواهم، لم يزل لديهم الكثير من الأسرار بالتأكيد كانوا من قبل آلهة في عوالمهم بقايا ممتدة وبريق كهنوت لا يخبو من نور باهت يمسحها لتخرج من غبشة الدفن الطويل، هنا ترقد جماجم انمحت نظراتها وكانت من قبل ترنو بالوعيد لمن دونها، كانت تحمل للإنسانية الرعب والفزع، لأن إيماءاتها كانت تعني: الحياة أو الموت.

تعفنت اليد والْتوتْ العظام تحتها، وكثيرا ما كانت بإشارة خفيفة،

أو بجرة قلم (ريشة) باردة تصيب الحكيم الذي يرفع صوته عند ذي العرش بالخرس وتزجه إلى ظلمات السجون راسفا في الأغلال الغلاظ، سمعوه يقول:

-ألا صفقوا بأيديكم عاليا واجعلوا تصفيقكم معبرا عن السعادة والانتصار، عن الفرح والابتهاج؛ فإن الموت هو نهاية كل جنون طويل، لا خوف، لاشك، لا تردد، لا قلق، ورُبَّ ألمٍ واراه الإنسان في تراب القبر معه .

من هؤلاء الناس الذين يعيشون على الأرض في نور القمر؟، إنهم ممثلون، إنهم يلبسون الأقنعة، وبينهم وبين الموت رباط لا يرونه حق اليقين، إلى أن يخرج بهم النفاق من ساحة التمثيل، فطوبى لمن كان دوره صغيراوساوى جسمه الطبيعة، ألا إن القفزة من عرش الملك إلى قشرة الأرض شيء يسير كأنها تبديل ثوب بثوب، بملء فيه صرخ أبو البقاء قائلا:

- أَلَا تَرَوْنَهَا؟، أَلَا تَعْرِفُونَهَا؟، يَا لَلْهَوْل..!، إِنَّهَا مِنْ جِنْسِ اكْشَاف الْعَزِيزِ "أَبِي الْهَوْلِ"

سلسلة مفاتيح الشبكة بين أصابع (أبو البقاء)، يفتح، يغلق، يبدأ، ينهي، يعطي، يمنع، يحرر، يأسر، وحده بيده السلسلة والمفاتيح، الأمر والنهي، الحياة والموت، حدث نفسه ولا يزال يحدثها غير مصدق:

-"سامي، يا سامي، أنا للآن لم أنمْ، ليس من خوف ولا من جوع إنما هو الألم لمستقبل أراك فيه تتردى، آهٍ يا سامي، كما ابن نوح أنت، لن يعصمك مني ما تمسكت به؛ وطمعت فيه، يا رب، أراك يا ولدي تنكرتُ لترابِ مضجعكْ؛ لقد ضحكوا عليك وغيروك سحقا لأريجٍ يَتْبَعُكْ، وأنا أبوك لن أكون مَعَكْ برغم إني مشتاقٌ إِلَيكْ لكني أكرهك أكرهك وأكره أن أسمعكْ أسدل الستار على أمر لمْ ولن ينفعكْ!!"، قال للشاب بحدة جازمة.

– أطلب سامي من هاتفك؛ وعرفه على لساني أن أخاه رشدان نجح ولازم يحضر الحفل الكبير المدعو إليه كبار الدولة ورجال الأعمال.. واجعله يدعو نسيبه ومراته "مايا" ليحتفلوا ويفرحوا معنا.. في توابيت جهنم.

لم ينتبه أنه لأول مرة يعرف أخا بأخيه.. ويغريه بالمجيء وهو يعرف أن الأخوين لم يلتقيا.. ولن يعرف أحدهما الآخر..

تم للباشا ما طلب.. نزع من يد الشاب الهاتف.. نادى رجاله وقال لهم:

-أنزلوه فندق الجبل، مكرما، معززا، في الفردوس الأعلى طبعا يلبس بدلة خضراء، ولا تبخلوا عليه بشيء، أي شيء..

عرف الشاب مصيره، ارتخت أعصابه، كاد يسقط، جرجروه ولم

ينطق بكلمة، لكنه سمع الباشا يوصى الورشة بتصميم عشرة توابيت ماركة الإله مونتو، خرج "أبو البقاء" متوجها مباشرة لسوق "الصاغة" الذي يملك فيه أكثر من محل لتجارة الذهب ومشغولاته، توجه لأكبرها وهو المحل الذي يتخذه زوج ابنته "روان" لإدارة هذا النشاط الواسع مع د(هانيأبو الفدا النرفي) هو ابن أخيه المستشار أبو الفدا النرفي الثالث في الترتيب الأسري، تزوج هاني من روان ابنة عمه الوحيدة، والمكلفة من قبل أبيها بالأشراف المالي والإداري على قطاع التعليم بمدارس (رِفْعَة) الخاصة، المنتشرة بعاصمة الإقليم ومدنه، وقف المدير المحاسب ليستقبل حماه، وعمه الكبير، أفسح له مجلسا في صدر المحل وأشار للعامل ليسرع بإحضار القهوة المضبوطة بأدب سأل:

- طلباتك ياحاج؟

- أريد أن أطمئن على الخزائن.

- تفضل يا عمي.

أفسح له وأشار للحرس الخاص بالانتباه، فتح ستارا خلف المكتب بقليل؛ ليظهر درج هابط بقوة، ينتهي مباشرة أمام باب ضخم من نوع أبواب الخزائن الكبرى، معا فتحا الباب (كل بمفتاحه الخاص)، انفتح الباب على غرفة حديدية على كل جدار منها باب كالذي فتحاه، فتحت أربع خزائن كبرى: للعملة الصعبة، للأحجار الكريمة،

ثم الخزينة الكبرى لسبائك الذهب، مشغولاته النادرة الأثرية، الرابعة للحُجَج والوثائق والمراسلات ذات الأهمية والطبيعة الخاصة، تمما على كل شيء وخرجا ليسأل هاني عمه:

- خدمات أخرى يا باشا؟
- مسبحتين، واحدة ذهب والتانية ألماظ، وعقدين غير عاديين لحريم الهانم.
- متى؟
- بكرة وتبعتهم لي على المجلس.
- أمرك يا باشا كله من خيرك، ثم استفهم: (فص وسط)؟
- ماشي.. أخبار العملة إيه؟ سمعت أن الدولار طالع
- كله تمام يا باشا.
- خلاص اشرب القهوة لأني مستعجل، سلام عليكم .

سيغمر عالمنا المصلحة والأنانية ولربما ترمينا العولمة بألعاب لم نر مثلها تسوق كبارنا وصغارنا إلى طريق فاق الحلم وتجاوزه ربما، لم يرَ الأشجار كسلى مثلما يرى البشر، رآها خضارا يانعا يلهم العصافير وكل الطيور رقصة النشوة، وتغاريد الأمل، منذ حلول الليل وإرادته تتململ، تصهل كما الخيل خوفا من سياط التغول والقهر.. كأس السياسة مُرَّةٌ، تغصنا خلواتها بإيقاعاتٍ جريحة وفاجعة صغار الساسة حلَّقوا وتجاوزوا رهج الطفولة، قلبه

ممتن لأمه التي ملأته قوة وثقة وغربلته من كل الشوائب، مثلهم الآن أرفرف وأحلق، لقد تربت لديه ملكة الوصول لغاياته من أقصر الطرق لتأمين قناعاته الثابتة:

"أن اللف والدوارن مهما كانت درجة سرعته ودرجة إتقانه كالوقوف ثابتا دون تحرك فاعل، وأن الفريسة لا ينبغي لها أن تأخذ فرصة لالتقاط أنفاسها، أو تفريغ خواطرها.." الفساد عنوان تماما كالإصلاح، أولهما أسرع في الانتشار والعدوى، غير الثاني وما أكثر جنود إبليس والغاوون.

تقريبا الصعيد الآن بملك اليمين، بشراك يا نفري، واري النائب نبضة الفرح خلف الزجاج المعتم لسيارته المنطلقة ليلحق القطار الذي يفضله في السفر عن الطائرة إلى القاهرة قبيل العصر، وقد وعى تماما ماله وما عليه ملء العقل والقلب، لن تكون المعركة سهلة تحت القبة الليلة، تساءل وكأنه يتعجب:

- كيف نجح حافظ الأسد في تمرير شبله ليقبض الزمام على سورية؟، أود الاطلاع على هذا الملف الغامض والمثير ليكون زادا ووقودا في معركة "التوريث"
- المصيبة ليست في الشمال بل في الغرب عند القذافي وحلمه في مملكة عربية إفريقية..

ابتسم بملء شدقيه وصفق منتشيا وقال:

-مدد"كوندا ليزا رايس"، الفوضى الخلاقة قادمة لا محالة.

لم يستطع الإفصاح أو التعبير عما يعانيه ويكابده لسبب بسيط هو أنه الآن يشعر بإرهاق ذهني وبدني، وحتى يتمكن من أن يزيح غبار المعاناة أو يخفف من كثافته على تضاريس بدنه استسلم لغفوة وهو في مقعده بالقطار المكيف وكأنه قد غم عليه كل شيء فجأة؛ فلم يتضح الهمس، ولم تُجْدِ الإشارة نفعا كلغة تفاهم بينه وبين نفسه.. حانت محطة من محطات كثيرة على الطريق ساعة الاحتفاء بقدوم المساء على الرصيف الممتد كصناديق تؤرخ للإرهاق والإرهاص والكوابيس، استلمه النوم من التعب، استشعر احتقانا نفسيا وذهنيا تمكنا منه؛ فكان الكابوس الذي يطارده دائما أينما حل؛ يتواتر عليه منذ الصغر.. فكان يهرب منه عند أمه بعيدا في الصعيد، أو يشغل نفسه في لعبة رخيصة في دار الحضانة، وها هو مجددا يرى نفسه محمولا في نعش ذي سرينة ينحدر به من فوق جسر مهترئ يغطيه التراب الرمادي، والدخان الجسر في الحلم طويل وممتد على نهر هائج ومشتعل، ينحدر به مسرعا إلى تلك القبور المعجونة بدماء أبرياء وجوههم كأكمام الزهور التي لم تتفتح بعد ولم تر النور، لا عناوين لهم ولا هوية.. وامرأة وحيدة تصرخ في المشيعين:

- المحبة .. الرحمة.. الله

الشاهد الرخامي ذو اللون الرمادي هو قاطرته وعلامة وجوده رقما في متحف الراحلين أحياء ودون اكتمال أدوارهم ومهماتهم. لعبتة الوحيدة الضاحكة على أرجوحة أمامه كالبندول بين الصمت والكلام ساهمت في مشهد احتضاره المرعب.. بخار القاطرة يغطي الخريطة المنسدحة بين الماء والماء بلون مميز يمكن أن نسميه عصر التراب، أوعصر السواد وذلك قبل أن تحمله الريح إلى متاهات الخجل، أو تحوله عاصمة جديدة للبكاء..

الدموع التي تجري أنهارا في كل أنحاء خريطة بدنه، يفكر في أن يخفيها لتتبتل به عروق ألسنة بعضهم التي شققها العطش، والتقطيع في أعراض الخلق تحت قبة البرلمان، لتكن الدموع هذه شربة لهم عند غروب الشمس في يوم صومهم كفارة لذنوبهم؛ وانطلاق مدفع الاضطجاع والغنج والأوراد فرحا بتحقيق حلم انتصار الهانم لولدها المدلل "جمال باشا"، أشجار بملمس الشوك وطعم المر بجوار الشاهد؛ استفاق النائب مذعورا وَسُؤَالٌ آتٍ مِنْ عُمْقِ الْذات المفعمة بالغموض:

- مَنْ أَنْتَ ؟ وَلِمَ هَذَا الْكَمُّ مِنَ الْكِتْمَانْ ؟

عَهِدْناك يا نفري موسوما بالثقة والجرأة، مَأْخُوذًا مِنْ أَطْرَافِ الضَّوْءِ تَكْرَهُ الطَّوَافَ حول ما تريد؛ دَوْمًا مَعْرُوفَ الْهَوِيَّةَ وَالْعُنْوَانْ هَاتِهِ.. هَاتِ مَا في جرابك؛ إِنَّهَمُ الْآنَ لَا يجهلونَكْ، يحفظونك ولا يُنْكِرُونَ

صَوْتَكْ يبُارِكُونَ صعودكْ؛ فَرِحُونَ حَقًّا بِشروق إِنْسَانْ كأنك اكتشاف باحت به أرض الجنوب ومخابئ الفراعين مثيرا وملفتا، أو كَالشُّعْلَةِ بَيْنَ الْمَوْجِ أو كَالْوَرْدَةِ فِي يَدِ العاشق تَبْسُطُ مَدًى ولَيْلًا.. تَصْرُخُ في الدنيا: هَا أنا الْآنْ.

إنه هو ومجموعة شباب الحزب الديموقراطي التي تؤمن بالتحدي وبأنه لن يصمد أحد أمامهم ورغبتهم في تطويع كل نفس وكل صعب لما يريدون ويخططون، في ذلك تزداد نشوتهم وتعظم اللذة كلما اقترب وقت النصر، انتبه أبو البقاء لكنه لم ينس النعش الطائر في الكابوس تحسس نفسه وهو يخشي أن يلحظ أحد ارتباكه، تشهد وحوقل ثم طلب ماء وقهوة وهو يمسك بتليفونه ويطلب الشيخ ريحان البرهامي:

- ألو.. شيخ ريحان الحلم إياه، الكابوس، مفيش فايدة اسمع
- شوف: خد من المزرعة ثلاثة عجول (العجل لا يقل عن ٤٠٠كجم)، تذبحهم وتوزع لحومها على الغلابة مع المكرونة والزيت، تأكد أنهم من الغلابة ياشيخ، خلاص المقام والجامع على التنفيذ، طلباتك تنفذ على أعلى مستوى وبسرعة يا شيخ ريحان، شوف شغلك زي ما اتفقنا على طريقة رايز، مولد وفوضى خلاقة، نتقابل الأسبوع القادم إن شاء الله..

وقبل أن تطوى المسافة إلى القاهرة استرجع صفحة ضاحكة من

حياته الأولى عساه ينسى ما رأى، وتخفف عنه، يحكيها بنفسه لنفسه، وقفت أمامي تسد علي الطريق؛ مدت بصرها في بصري؛ فتواصلت العيون بما تحمل؛ لاحظت انكسارا في عينيها وحزنا، في العمق البعيد من العينين الواسعتين ما يشبه الرجاء والالتماس، مددت يمناي ووضعت بهدوء راحتي بين قرنيها، وجدت حرارة ورعشة وصوت أزيز يأتي من الأعماق فيه ما فيه من إيقاع الموسقى العسكرية الجنائزية، أطلتُ النظر في عينيها فلم تتوان العناوين، والإشارات، وما في الجوف الحزين من نزف..

أخرجت من جيبي حبيبات "إسبرين" الأطفال الملازمة لحبوب السكري في جيبي، علفتها الحبوب دفعة واحدة، ثم سحبتها وسقيتها من قناة قريبة، كانت تشرب كأنها تطفئ حريقا بداخلها ارتوت، استدارت نحوي ثم ركعت بين يدي مسلمة رأسها لتربيتات يدي، صدر عنها خوار ضعيف مملوء بالانكسار والحزن.

فجأة وجدتُ امرأة ريفية ضخمة البنيان ليس فيها من صفات النساء إلا صوتها تضع في وسطها حزاما من قش البرسيم وعلى رأسها (الغومة) التي تحجب الرؤية عن عيون الحيوان الدائر في الساقية، وقفتْ عند رأسها وبيدها حبل وسوط.. لفت الحبل حول عنق البقرة وهي تنظر إليَّ وتقول ساخرة "لا يأخذك الحنان بها إنها هكذا منذ بعنا الفحل صاحبها"، بس والله عندها حق؛ وأكملت ناظرة إلي

"كان فحلا بجد".. ساطتها وسحبتها بعيدا وهي تضحك سارت معها لكن البقرة مضت مع صاحبتها وهي أكثر انكسارا بعدما كشفت المرأة سرها، ابتسمتُ وفي سمعي قصيدة رثاء سمعتها من جوف البقرة.....

ملحوظة:

قصة البقرة هذه لا يعلم بها أحد والنفري حريص على إخفائها لما فيها من إشارات إنسانية؛ قد تهز صورته، وهو الحريص على "برستيجه" الغامض، مَا بيْنَ شِمَالِ وَيَمِينِ فُلْكٌ ينطلق عبر الأمواج فِيهِ الْحُلْوَةِ وَالْمُرَّةِ وصل القطار محتضنا عاصمة المعز، ترجل النائب مثقلا وحزينا.

في محطة مصر، كانت تنتظره سيارة بلوحات رسمية بهوية دبلوماسية حملته مباشرة إلى مجلس الشعب، فاجأته تظاهرة صاخبة تقودها "حركة كفاية، حركة السادس من إبريل، جماعات متفرقة تمثل أحزاب المعارضة"، اللوحات المرفوعة كلها تندد بالمجلس، وبالحزب الوطني ورموزه، وترفض التوريث وتطعن في انتخابات المجلس بالتزوير، هتافات ترتفع هنا وهناك تنادي بالإصلاح والعدالة الاجتماعية بصعوبة شديدة وبمساعدة أمنية شق طريقه إلى المجلس، تحت القبة التاريخية للمجلس، (القبة التي شهدت تحولات وتقلبات وانتصارات وانكسارات أمة لم تألُ

جهدا في النهوض واللحاق بركب الأمم دون ما يطرأ عليها شيء ينسيك شكلها أو تاريخها السياسي والوطني منذ عرفت مصر الديمقراطية) لم يكن ما يراه هنا إلا شكلا آخر للمصريين، لا يختلف الشكل تحت قبة المجلس عما يحدث في الخارج، وإن كان صوت الخارج أصدق تعبيرا، أصوات عالية منها: المعارضة والمؤيدة الحزبية وغير الحزبية، كلمة "لا" هي الأعلى؛ هي المهيمنة على الجلسة، دخل النفري مباشرة على وكيل المجلس حياة وقبَّله ثم همس في أذنه بشيء أسعده مما جعل الوكيل ينظر باحتقار إلى مسبحة العضو (الخضري) رغم أنها ثمينة ومن أرض الحرمين الشريفين، لم يتحول النفري حتى سمع وكيل المجلس يقول له:

- الجلسة إياها في قاعة المؤتمرات مقصورة على أعضاء الحزب الوطني ..
- سيحضر المورث والوريث
- الأسرة كلها
- على بركة الله.. بس ربنا يعديها على خير

وقبل أن يغادره، جاءه من يهمس في أذنه، هز النفري رأسه بالموافقة، وقال للوكيل:

- الهدية وصلت مع مخصوص
- عيار ٢٤ يا حبيبي

- ٢٤بندقي، احنا بنهزر؟، بس همتك في زفة العرايس الفرعونية، وصفقة القمح الروسي..
- ولا يهمك زفة وحياتك على أعلى مستوى، بس خللي الدكتور"رشدان "يشد حيله، (ومال عليه) العرائس تحت الأرض تناديه، أما صفقة القمح فسهلة جهز صوامعك وتجارك الموزعين
- كله جاهز لكنك فكرتني، أخبار العروسة إيه؟
- المهم أم العروسة يا باشا، جهز الهدية ومالكش دعوة، تقل العيار شوية، انت عارف عينهم على كرشك إللي بيكبر، فاكر لما طبل لك على بطنك وقال لك":(بطنك كبرت يا نرفي) يومها قال: يانرفي بيفكرك بأصلك..
- بيني وبينك (بهمس) مابيشبعوش، العيار بندقي وثقيل، همتك معانا الولد يمكن تخطفه موميا..
- ما عليك إلا الإبداع في الجلسة القادمة"من أجلك أنت"

ضحك وانصرف ليرى الآخر صاحب المسبحة الألماس، (أمين عام الحزب الوطني)، بَيْنَ الْغَيْمَاتِ وَالْبَحْر يَمُوتُ الْمَطَرْ تحت هذه القبة العصماء، يشر، نوعهم فريد في البشر، بينهم لا تنزع النصل من صدر الحنين، ابقه وترا مشدودا بين البحر والريح واحتمالات الخطر، عليك أن ترْسِمُ الرُّوحَ مِنْ تَوَا شِيحِك حتى يسكر القمر،

لو تنزعُ الْمَحَارَ مِنْ مَرَاقِدِهِ ؛الْبَحْرُ يَنْتَحِرُ ها هو يعود طوافا بهداياه الثمينة – الكل ينتظره متلمظا – انتبه فإذا جميع الأعضاء ينادونه، ويلمحون له بمسبحة أو ساعة أو خاتم يرد بابتسامة باهتة ويتوارى عن النظر...

أيتها الشمس لا تغربي عن وجه هذا الاجتماع، دعيه بين يديك يتجلى تحت أشعتك الكاشفة لعله يكشف المستور و يقرأ من كتابنا المسطور والمنظور، المنسوخ والمهجور؛ ولا تغربي إن حل المساء، فثمة آيات وعلامات لا يسكنها الغيم؛ ولا يفارقها الرواء المتقد بنورك لا أحد يجهل من نحن وينجح في كل المعارك والبطولات لكنه يموت على أعتاب الضعف والضعفاء، يبسط يده كل صباح بغير سلاح، لا يسأم التقبيل والتطبيل.

أيتها الشمس المقدسة لا تغربي قبل أن تقرئي له الهوامش من سفر تاريخنا المرصع بالمجد، اكشفي له عمن نكون في الجهات الأربع؛ ذكريه بأننا خلقنا للخلود بغير توريث؛ ولا تلويث وأنه قد مات من جعل شعاره القفز، وفرض الصمت والتهديد والاستمتاع بالشهيق والتنهيد، إن الله الذي أرسلكِ في الموعد والمكان يعرف ماذا نريد، وما هو المطلوب، إنه مصلوب في الأفواه وفي لوحات المتظاهرين وفي نكات السكارى وأبناء الليل، بل وفي ثكنات المجندين، والشعب مرمي كأيوب في البلاء يمضغ الصبر ولا يمل

الدعاء، كل ما يخشاه أن تغربي عنه أيتها الشمس وقد عم المساء وأسفرت الساعات عن وجه الوريث قابضا بيديه على الصولجان.

عندما دشن مبارك حملته الانتخابية في شهر أغسطس ٢٠٠٥ في مدينة شبين الكوم بمحافظة المنوفية –مسقط رأسه – كان نفوذ نجله جمال قد وصل إلى حد كبير، وكان جمال هو الذي يقوم بإخراج مشهد الانتخابات الرئاسية لوالده، على الأسلوب الأمريكي بعد أن تم استبعاد الحرس القديم من الحزب، وبالفعل تطور نفوذ جمال، فقد قام بتشكيل حكومة أحمد نظيف الثانية بنفسه وقام بضم ثمانية من أصدقائه رجال الأعمال إلى هذه الحكومة، ورضخ مبارك بالكامل لاختيارات نجله، إن دور جمال مبارك وعزل والده تزايد فأصبح هو الذي يقف وراء التعديلات الدستورية التي مرت في٢٠٠٧ورسخت سيناريو التوريث بأسلوب دستوري مشروع.

ثم يأتي الحديث عن سوزان مبارك باعتبارها قوة الدفع الرئيسة وراء تحول نجلها جمال نحو سيناريو التوريث..

كانت سوزان تتمنى الاستمتاع بمجد السلطة بعد زوجها من خلال نجلها، وكان دورها في الحياة العامة قد ازداد بشدة منذ أن أنشأت ما يسمّى بـ "حركة سوزان مبارك الدولية للمرأة والسلام"، وهي حركة كانت تستخدمها لترسيخ صورتها كسيدة أولى وصاحبة

نفوذ، "إن أكثر ما عاد على مبارك من نفع من الانتخابات الرئاسية هو ترسيخ صورة عائلته لدى المصريين على اعتبار أنها العائلة (المالكة)، لكن الانتخابات شهدت أيضاً أمواجاً من الشائعات عن ثروات هذه العائلة، وهناك حكايات لا تنتهي في صحف المعارضة المصرية، يقول أحد الباحثين في مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية:

- "إذا كان للانتخابات من فائدة فهي تلك الحملة المباشرة التي شنتها الصحافة المصرية على "الفرعون الأخير"

الجدير بالذكر أن سوزان مبارك بدأت حياتها معلمة بمدرسة ابتدائية بمرتب ١١جنيها شهريا، لكن بعد أن أصبحت سيدة مصر الأولى دخلت مجال السياسة و(البيزنس) فصارت كالملكة على العرش، وقربت إليها من تستريح له (من أمثال النفري وشبكته) وأبعدت من لا تستريح له، وكانت هي الحاكم بأمره بصرف النظر عن المصلحة العامة أو عن مصلحة الشعب المصري، وتوطدت علاقتها بسيادة النائب بعد أن تبرع بمبلغ٢٥٠ألف جنيه لأحد الأعمال الخيرية التي تبنتها سوزان مبارك، وكان هذا التبرع فاتحة خير على النفري الذي تم تفويضه تفويضا حرا في إنشاء فروع بجميع المحافظات لجميع منشئات الهانم..

ما إن انتهى المؤتمر الطارئ للحزب الوطني، وانتهى النائب من من توزيع (هداياه) من الذهب والماس وتهيأ للعودة المظفرة لسوهاج حتى استدعته وزيرة القوى العاملة إلى مكتبها، لم يغب عنه ما وراء الدعوة، إنها بصفتها كأقرب سيدة في حريم الهانم.. تقوم له بشيئين..

الأول: تهيئة كافة الظروف الاجتماعية والعائلية لأعلان حطبة ابنه رشدان على ابنة أحد أفراد عائلتها...

الثاني: مساعدة رشدان بالتقدم لوكالة ناسا الأمريكية وعنده البحوث الفرعونية التي تؤهله ليكون أحد أعضائها الباحثين أنهى مقابلته للوزيرة ولم تنس أن توصيه بهديتها، أحنى رأسه ملبيا، وانصرف مبتسما، الساكن في ظل الساكن علاقات تحكمها أماكن ومصالح، حب صامت، ظل بارد، آهٍ من فقْد ربيع واعد وحبيب في قلب نابض تحترق الدنيا؟ لا مانع، هذي محاريب مواجع، وتماثيل مدامع الثابت لا يبقى ثابتا، يتغيرفي اللون وفي النوع، في الناس والليل، في الفجر في الروض، والزهر، أرضنا الخضراء تتحجر، يحكم فيها من يكذب، يثرى فيها من ينهب، يفتي فيها المتأسلم، يصغي فيها المتعلم، والأعلم، وطن الأمجاد، كل ما فيك تغير يا من فيك ولدنا، أُرضعنا وفطمنا، طرناوحلمنا، كبرنا وهرمنا لماذا التغيير؟ لماذا التنائي؟ التعامي والتشفير؟ أعيدنا حيث كنا

نتغنى، نتباهى ونفخرْ، تنبه وشاهد انبثاق الفجر، عندما ارتفع النهار بضيائه، تلاشى ندى الصباح ببريقه وطراوته، ثقل الهجير على الشجر وعلى الزهر، مالت الدنيا إلى القيلولة ومخادع الراحة كضيف ثقيل ممضّ، تنهد وتحسر على ليل انقضى...

نهض يخاطب الفراغ حوله:

-أيها النهار الممل بعد أسبوع سيكون قصر المرجان ممتلئا بشتى أصناف البشر احتفالا برشدان ونجاحات بحوثه التاريخية والعلمية، ستكون ليلة بالتأكيد حافلة ومؤثرة لا ينبغي للنعاس أن يأتي وحدك أيها الزمن السعيد الحبيب ستكون؛ زمننا وحدنا، أقبل ولا تبطئ؛ فلتكن نسماتك وسماتك رقيقة، ونجوم ليلك صافية ومضيئة، أسرع يا ليل، أسرع وبارك مع الجميع الاحتفالية بنجاح رشدان وتفوقه لكن كيف ستكون؟، سؤال طرحه النفري على نفسه وأضاف:

- من ندعو؟ ومن نترك؟، لا..سأكلف شركة متخصصة لتقوم بكل شيء

هكذا بدا في رحلة العودة بالقطار من القاهرة كما هي عادته وهوايته، اضطجع في مقعده وأطلق لروحه الخيال، امتلأت حديقة قصر المرجان باهرة الزينة والبهاء وصالته وصالوناته الفخمة بمختلف الشخصيات والمستويات من رجالات مصر ونسائها، ساستها

ورجال أعمالها، الأغنياء والفقراء، الشرفاء وغير الشرفاء، بدا الحفل المعد له بعناية فائقة مشحونا بكافة الألوان، والأطياف كل خيوط الألوان البشرية في يد سعادة النائب؛ هذا الذي تألق نجمه في اجتماعات الحزب الوطني الأخيرة؛ ولقد انعكست قوة الرجل وشخصيته في انشغال مطار الأقصر وفنادق المحافظة منذ أمس خدمة للمدعوين والمدعوات من مصر وخارجها إرضاء وتلبية للدعوة الكريمة، دخول وخروج الشخصيات ذات المقام الرفيع يتم مصحوبا بطريقة تنم عن خيال خصب وخبرة في تنضيد المجموعات المتناسقة والمتوافقة سياسيا واجتماعيا مع بعضها حتى لا يحدث تصادم يعكر صفو الحفل وبهجته..

الحفل بشكل عام شهد ما يشبه الهزيمة لبعض القيم والعادات والتقاليد أمام المال والسلطة، وإلا فما تفسير تبرج السيدات والفتيات في ملابسهن والمبالغة في عطورهن ومشيتهن، في رقصهن وشربهن؟ وما تفسيردخول مأكولات غير مباحة لإرضاء فئةمن المدعوين من ذوي العقيدة المضادة للإسلام بل وللمسيحية.

شخصيات في معظمها آلية؛ تجد كيانها فيما تملك من منصب وحظوة؛ فهذا عجوز مهرج يفتعل الضحك والنكات السخيفة ليلفت إليه السيدات، وهذا شاب عاشق يعيش حلم حياته بقدر ما يثق في قدرته على إيقاع بنات العائلات في حبائل خيلائه؛ هاهو يقول

ل"سونيا" حبيبة ابن وزير الري:

- "أتعرفين؟.. لا أحد هنا أجمل منك.. بل ربما لا يوجد غيرك في الحفل."

الليل السوهاجي يفرد بساطه من نسيج عالم الخيال والأساطير ليجعل الحضور يحسون تلقائيا بأنهم في معية متعة غريبة قد لا يجدها أي منهم في أحلامه ربما سمع عنها من فم شهر زاد في ألف ليلة وليلة، عالم مختلق ومختلف لا يقاوم فيه الكذب والنفاق، قليل من يكشف الخدعة ويواصل اللعبة برغبة منه مندفعا في الاندماج والتماهي ويساهم من حيث لا يدري في انتصار الخيال على الواقع والمصلحة على القيم، ثمة من اختلق قصة من صميم خياله وجسدها في نفسه ليجعل لحياته الفارغة هدفا وقيمة إلى أن يفيق ويكتشف أن الواقع أفضل وأبقى.

وفي المشهد بعض اللَّبْسِ من كثرة مزج الألوان السياسية، والاجتماعية، وخلط بعضها ببعض تحت أضواء تتبدل وتتغير، سريعا، قربا وبعدا، سطوعا وخفوتا، حدثت مفارقات مضحكة، أخرى محزنة من تحالف أو تخالف التهريج والسخرية بالمرارة والفقر بالغنى والرفعة بالحضيض، ويصعب التفريق بينها، أسفرت الليلة عن معسكرين بارزين سافرين في العداء ومحكوم عليهما بعدم التفاهم والحقد الأزلي:

"كثرةٌ ترضى بالقليل، تتناسل على إيقاع قناعتها في "خليها على الله"؛ فتكثر من الحرث والنسل، والفرار من الأوبئة والحرب حتى نهاية الأجل، هم خلقوا للحياة وبطبيعتها لكل زمان، وأي مكان، ولا يمكن أن تتخيلهم أمواتا من أمثال فضل الجنايني؛ وطبقة السائقين، الفلاحين، الخدم، العمال، موظفي الدرجات الدنيا، "النخبة والأشراف، وهم في أغلب الأحوال يميلون إلى الفخامة في المظهر والليونة في الكلام والحركة، وفيما بين الفئتين الدنيا والعليا تجد فئة" محبى النظام، والسلوك المنضبط: أناس لا هم بالفقراء ولا بالأغنياء لكنهم أذكياء واضحين عاقلين لا تعقيد في حياتهم، إنهم ذوي مقدرة فائقة في معانقة الألم غير جاهلين به، أومنفصلين عنه، إيمانهم بالعدل والحق والمساواة جعلهم مهمشين أو منفيين على هذه الأرض وللأسف لا يوجد منهم أحد في هذا الحفل، أبو البقاء النفري هو رجل النظام السياسي لا السلوكي رجلهم بكل ما لهذه الكلمة من معانٍ، إنه يؤمن بالعمل الحزبي، يمسك بتلابيب شعاراته كما أنزلت من أمانة الحزب، إنه أمين رائع يقول دائما: "نعم"؛ لحرصه القوي على أن يظل اسمه يعلو ويتلألأ بين رجالات الرئيس وحريم الهانم.

تبحث عن الشباب بين الموجودين فلا تجد إلا عددا لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة من زملاء رشدان وأقاربه، أحدهم هذا الفقير

ابن إحدى عمات المحتفى به، "مصطفى" شاب فقير الهيئة؛ والشأن يقف في المؤخرة منزويا في ركن قصي يُلقي منه بظله الكئيب على الآخرين لعلهم يشعرون به، أو ينظرون إليه وإلى أمثاله، وغالبا أمثاله لا يحلمون بشيء ذي بال، إنهم شباب يرفضون المشاركة في أي شيء وإلا حسبت عليهم موافقة، ورضا بالنظام والسياسة، معارضون سلميون تحت شعار "كفاية"، أنه الآن يرى خاله وابن خاله الذي يحتفي به علية القوم، وكبراؤهم نجومًا وأثرياء المجتمع المنقسم بين (رأس) تحوز كل شيء، و(بدن) لا يجد أي شيء، ويرى البنات تحت ظلال الجواهر والأناقة يتحرشون برشدان، محاولة إيقاعه، استقطابه ليكون عريسا (لقطة)، لكن لا، فهو يعرف شخصية رشدان المنضبطة أخلاقيا وعلميا، أنه ينطوي على ما به من حزن لفقده زميلة دراسته وبحوثه "إيسار المنجي" التي كانت غنية بعلمها وأدبها، أما مصطفى فتذكر جارتهم (نوارة) ابنة الغسالة وتخيلها في ثوب مما برى من طرح باريس وأتيلاتها هي وإيطاليا من الثياب والحلى والعطور، تنهد وتخيلها ترفضه وتعيره، عاد لركنه البعيد يقاسي الذل أكثر مما يقاسي ضيق ذات اليد، إحساس بالاستعباد يتحول بداخله تدريجيا إلى دافع للثورة على هؤلاء، وحافز على طلب المطلق والمستحيل، أخذ يقنع نفسه بأن الغنى يهب الإنسان سعادة زائفة

تنهار بمجرد زوال الثراء واختفائه تبرير فقير يقاسي من ذل اجتماعي أعمق من ذل المال.

وجها لوجه مع المال البعض يبحث عنه، والبعض الآخر يفر منه، يعترف لنفسه بأن الفقر جعل حياته الأولى إبان الطفولة سلسلة طويلة من الأفعال الحقيرة، والمثيرة للاشمئزاز، عليه الآن أن يأخذ حذره ويفكر في مستقبله من خلال جرحه الاجتماعي، ومن خلال حرصه على النجاح، والنقاء، ناداه رشدان فخفف النداء من وجعه ،ومن ألم العزلة في قلبه، أخذه وعرفه على أحد أساتذته في إعداد رسالته، ونشأ حوار علمي بين ثلاثتهم لم يقطعه إلا صوت جهوري ينتفض صاحبه من فوف إحدى موائد الطعام يصرخ ويقول:

- الميزان مائل، الظلم واضح، لا بد من تخليص الأرواح، زوجتي وأولادي غرقوا مع عبارة السلام٩٨، لا أتمنى أن أكون مثلكم، أريد تعويضا مناسبا، وأظنه لن يكون، سأقتل الدنس؛ وأطهر الماء والتراب

تقدمت كوكبة من رجال الشرطة الأشداء وحاصروه، دقائق ولم يعد له أثر في المكان إلا صدى صوته العميق،"أطهر الماء والتراب"، ظل الصوت يدور بالمكان في دوائر تتسع وتضيق، تقترب وتختفي حتى بعد أن أظلم مسرح الحفل وانصرف الناس قبيل الفجر كل إلى مخدعه يطلب النوم والراحة قد تنعس العيون

ولا تنعس العقول، نهض من فراشه وطلب رشدان، دخل رشدان بملابس النوم متثائبا، أصلح قليلا من هندامه وواجه أباه منصتا

– أعجبك الحفل يا رشدان؟ من لفت نظرك؟

تلفت رشدان قبل أن يجيب:

- هذا الذي وقف صائحا يرثي عائلته الغرقى في البحر الأحمر، مسكين!! من يرثيه الآن؟
- اليوم يخرج، سيودع مصحة نفسية، الله معه..
- اسمع يا ولدي لا شيء دون مقابل، سترى كيف ستنعكس عليك وعلينا أضواء تلك الليلة، لقد تمت صفقات استثمارية في الزراعة والصناعة وغير ذلك لم أشغل به فكرك ووقتك، المهم دراستك وأساتذتك..
- بعضهم حضر وفيهم الأهم، هو ماستر الرسالة، وأنا يا أبي مستعد نفسيا وعلميا، لو أوقفت مساعداتك أكون لك من الشاكرين، الدكتوراة مضمونة يا أبي، ابنك مميز ويعرف ما يريد
- أنا مطمئن لذلك.. لكن العروسة؟
- لا زواج قبل الدكتوراة، واسمح لي حضرتك:أنا من سيختار عروسه، عصر جدودي انتهى.
- أزعل يا رشدان وزعلي مكلف

-ألا تهمك سعادتي؟

-سعادتك ومصلحتنا، استعد لمقابلة الوزيرة قريبة العروسة

-أبي، ممكن نؤجل الحديث في ذلك فترة، إلى ما بعد المناقشة العلمية للرسالة

-ممكن، لكن إيسار لا تغب عن عيني

-أنا لا أخرج من المقشرة

-حرام عليك، غير الاسم الكريه هذا..

-السلام عليكم

أسمعتم صرير العطب..؟، خرير الرجس له في كل فاصلة نصل محصن بالإثم، يا لكيدهم يغيرون على كل شيء ويتركون مُداهم في كل جسم؛ لهم في كل عرين مخلب، وفي كل سفينة ثقب، سحابة بين الضوء وبين الشمس، مسافة بين الأمل وبين اليأس. ها هي الأُمَّة والفرائض الغائبة، لم يتخل لحظة رشدان عن التفكير؛ ولا عن إحياء روحه وعلومه مم خُلقتٌ؟ كأبي الذي منه ولدت؟! أترى الدم في جسدي؟ وحشيٌّ، بري، شبَّ، وتولَّه، اصطفاني الله لغير العفن، لا لن أكون للغواية أو لقتل البراءة والخلافة؟، لا، ما ضل التراب وما غوى، غيره ومن نفس السلسال: توحش جار، وانغمس في العار، من كتم الأذكار وأجراس الاستغفار، لا، لم أعد كما خلقت شحذت ما بيدي من نعمة الفكر، أعليت غذاء الروح

على البدن الذي قتلته، أحرقته، وذريت رماده، دخل رشدان "المقشرة" ونفسه تمور وتغلي، منذ حلول الليل وإرادته مقيدة بالاستخذاء، تتململ، تصهل خوفا من سياط الضيم والقهر، صحا "أبو البقاء النفري" على سؤال يلح عليه منذ استقبل ولده سامي وزوجته مايا ونسيبه "السير مايا"

- "هل يخضع المرء لماضيه أم لمستقبله؟، لأصله أم لحاضره؟ أم يظل رافعا شعار المصلحة قبل كل شيء؟

إنه تواق إلآن للرجوع إلى أصله الذي يعني الجوع، إلى الأدب والتواد والتراحم، ثم الحرية والكبرياء لكن، شخصيته الآن تعاني من ضغوط سلسلة من المواقف الراهنة والمتداعية، وكلها ثقيلة ومعقدة تؤكد على تبعيته تماما لمحيطه الجديد، وعلى مستويات عليا في أنحاء الوطن؛ بل وخارجه، إنه يواجه نفسه الآن لا ليحاكمها بل ليخيرها شيئا فشيئا قال:

- لا.. المستقبل لا شك أت وله ثمنه

إنه يرفض ماضيه، يرفض أصالته وطهارته وينحاز بقوة للأنا الساسية بداخله، اليوم – وفي وضح النهار – سيكون الموت هو البطل، هو الرمز في ساحة فندق الجبل لقد استلهم سيناريو العقوبة من أبجديات وبروتوكولات المنظمات الإرهابية في العالم ومعه تبارك عنفه وجبروته قيادات المحافظة والداخلية..

لكنه لم ينكر أنه أصيب بنوع من الخوف والفزع لمجرد التصور، ولإمكان أن تحدث مفاجآت غير محسوبة، النفري الآن في شخصية فرعونية أخرى، يريد أن يبسط قبضته وشكيمته وعلى أقرب الناس إليه تحت مبدأ "اضرب المربوط يخاف السايب"، إنه الآن يمثل الميزان الخاص بعدالة النخبة والسلطة الاستثنائية قضاتة عيونهم لا ترى إلا المصلحة العليا لطغمة ابتاعت الوطن لصالحها.. توابيت الصهر(مونتو) تتهيأ بعيدا في قاع الجبل بكل أنواع الهلاك المدمر على مرأي غير بعيد من عيون النفري وحلفائه من فراعنة النظام وبعض العيون من شبكته التي لا تفلت ذبابة، هذه نهاية كل مدان ولو بكذبة أو لفتة خامرها الشك، إنها دولة النفري ليرى أعداؤه ومبغضوه كيف يكون الانتقام؛ فإن شاءوا استقاموا، واستسلموا، وإن شاءوا هربوا واختفوا إلى الأبد.

إن أسرارا تذاع، أو حقوقا تنتهك لهي أكبر دافع لإشعال البارود في أحداق المدان ومعاونيه؛ ليتبدد الخونة والمتآمرون كما يتبدد الدخان في مهب الريح، وليذوبوا في اللهب كما الشمع في الظلام، نعم، الله سبحانه يغفر الخطايا ويعفو عن السيئات لأنه هو الله وهو العفو الكريم، البشر من أمثال النفري وشبكته بلغوا المقدرة والجبروت في الفصل التام -عند المصلحة- بينهم وبين الله، شعارهم: - "ما لقيصر لقيصر، وما لله لله"

"الخطاة سيمحون الخطاة"، سيجعلونهم يجثون على ركبهم، ويمطرون ما بين أيديهم بدموعهم طلبا للعفو؛ وإبداء للندم والتوبة، هذه لحظة المواجهة بين النفري وولده "سامي" ليلة أمس كانت ليلة رشدان ابن بهيجة، واليوم ساعة سامي ابن زينات، الفرق ساشع، العلاقة تضرب بجذورها للأمهات، تقف شاذة وغريبة عند حدود المصلحة..

أُحْضِرَ الولد ونسيبه وزوجته للمواجهة وللمصير الأسود، "لن يهدأ نفسًا حتى يثأر للخيانة؛ وحتى يسترد المومياء المسروقة أو مقابلها المنهوب، المجد والسمو للفرعون وللمومياء سيزي نجمات"، الساحة تحت شمس الظهيرة معدة للتنفيذ فالمكان مؤمَّنٌ تماما بالمدافع والطائرات المروحية، ورجال الأمن المركزي فالدولة ها هنا بشعار النفري حاضرة بشخصه، وقوتة المدعومة من عل، أطلقت ثلاث طلقات إيذانا بتنفيذ الحكم في ثلاثة من الخونة، من الفردوس الأعلى في فندق الجبل سينزل التلبوت المعدني حاملا بداخله المحكوم عليه من قضاة دولة النفري من الفردوس إلى الجحيم ليتم صهره بهدوء وإلى الأبد، قبيل التنفيذ بلحظات جاءته أوامر عليا من القاهرة للإفراج عن (السير ماتيا وابنته) لتَدَخُّلِ السفارة البريطانية من أجل حماية رعاياها ورعايا التاج البريطاني، كاد النفري يجن فكل شيء يتم في سرية تامة؛ فكيف علمت

السفارة البريطانية بموعد التنفيذ، لا شك في أن خللا ما حدث، عليه أن يتحرى الأمر وإلا فالأمور تنفرط.

لحظة، ثم جاءه ملحق بالإفراج عن (سامي) لكونه يحمل الجنسية البريطانية وله أبناء انجليز!!، لقد تغيرت الساحة تماما وتغيرت فيها الوجوه مابين مستبشر وغاضب، تقبل المفرج عنهم الأمر بكامل الوقار والفرحة، وكأنه فتح مقدس حيث تدخل الله في اللحظات الأخيرة، ووهب الحياة لمن كانوا على وشك الفناء، "مبارك لكم.." لا تنسوا نعمة الله عليكم أن أنجاكم من الذوب في النار، أتريدون تذكارا؟، صورة وفيديو للهالكين في تابوت الإله منتو..؟، انحنت الرؤوس وانثنت الركب جاثية تعترف بأن العناية أدركتهم وأخرجتهم أحياء من القبور لبصير الكفن فستان فرح أو بدلة عرس، وتحول دخان اللهب إلى بخور الفرعون، من عجينة الشيطان نبَتْ ولن ينحني للأمر كما انجنى آدم، لقد قرر (الافتراء) ولن يتنازل عنه لا خوفا ولا مناورة؛ فحوله ناسه من نفس عجينته لهم سحرهم وقوتهم، ومن كان تحت عرش "النفري" فلا يحزن؛ فهو منذ فاز بعضوية البرلمان وعصاه كأنه استبدل بها عصا موسى لتأفك ما يسحرون، تدرب وتدرج؛ ففي لحظة يعرف كيف"يلم الليلة" ويحول كل من حوله إلى راكعين وساجدين، ثم به

مؤمنين، شبكته على أعلى مستوى من التنظيم والانضباط؛ فلا عجب أن حظي بالتأييد والتفويض.

لم يسافر "السير ماتيا" ولا ابنه سامي وزوجته قبل أن يكتبوا على أنفسهم شيكات مقبولة الدفع بالعملة الانجليزية بثمن بيع المومياء "سيزي نجمات" وإعطاء عنوان المشتري لمفاوضته في استرجاعها، أو التهديد.

انتهي مشهد التنفيذ المروع في واحد اختاره القدر بأمرالنفري والذيلم يغادر الساحة حتى حولها من رماد أحمر إلى جنة خضراء وكأن شيئا لم يكن، هذا هو الشيطان يعرف أولياءه، يعزف ألحانه، يجمع حواريه وسدنة طغيانه، أعطى فرقته مزامير النار من ورق الزقوم نوتتة وعصا قيادته مستمعوه: مِنَ الحفاة العراة، وممن يتطاولون في الشهيق، في الزفير، ممن يتقلبون في جمر العصيان ويتعاطون اليحموم، لا بارد ولا كريم، في مسيل خدودهم تنام الآثام متوارثة في أبناء العم، ثم أبناء الخال، لامناص، لامفر، لابد من الخلاص الآن.. الآن.

صدمة ما بعدها صدمة، أن تعيش يقظتك، وأنت مخدوع في كثير من مفردات البقاء والاستمرار- تُخْدَع وأنت يقظ - فما بالك لو غفلت أو سهوت؟؟، (كُثْر هم المتربصون بانتعاشتك، وتفتحك،

يصعب عليهم وعلى شياطينهم أن يروك مستريحا؛ أو لديك بعض الحظ، المشكلة في أننا أحسنا الظن؛ ولم نأخذ الحذر كما ينبغي.
خيم الصمت على الساحة من نعيق غربان أو نعيب بوم، ورائحة دخان وشواء، وانسحبت ساعات يوم من أيام الجحيم.
لم تسلم الطبيعة من يده؛ أراد وإذا أراد "أبو البقاء" لم يرده عن إرادته شيء خاصة فيما يدور في محيط عزبته المتطرفة بعيدا عن المدينة وصخبها، قريبا من أملاكه وأراضيه، ستكون النخلة هذه من الخوارق، أو على الأقل لغزا أو أحجية تشغل الجميع بفوضى تحقق له طموحه والانتصار على شرين يلمظ وحفيد "أبو سويلم"
"قبة النخلة" في المكان الجذاب، والبقعة الجذابة هنا ينتدب الشيطان أولياءه، وأصفياءه؛ لا يفارقه تصوره، ولا خياله في أن هذه المنطقة بعد تجهيزها وتهيئتها للتعاطي مع معانِ التصوف ستكون مدهشة بترف وبذخ..
لقد أعدت الخرائط والنماذج، ولم يبق غير أمر البدء بالتنفيذ..
اختار سعادة النائب النموذج الثالث وهو يأخذ شريحة من أرضه وأرض شريكه الشيخ ريحان والساقية بالتأكيد من بينها على أن يغطى هذا الجزء من ترعة "أم الشواشي" الفاصلة بين أرض النائب وباقي الجيران كالصرف المغطى مسافة تضمن التوسع على الجانبين بأمان..

زحف على المكان الموعود بالفوضى كل أصحاب الأراضي في حوض أرض الساقية، زحفوا بقضهم وقضيضهم، ملثمين وغير ملثمين، مدججين بالسلاح من كل نوع آليٍّ وغير آليٍّ بدوا مستعدين للموت دفاعا عن ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم لم يعر سيادة النائب وجود أغراب عن المنطقة اهتماما، ولم ينتبه إلى تنوع الأسلحة أو يشك لحظة في وجود نية غدر أوعدوان لوجود رجال حرسه الخاص؛ ورجال الأمن المركزي ليخيم سلام القوة ويظهر الساحة كأنها ساحة سلام؛ برغم أن النفوس كانت مشحونة ومضغوطة بما فيه الكفاية.

انبرى حفيد أبو سويلم يخطب في الجميع خطبة استلهم فيها الخطبة اليتراء لزياد بن أبيه؛ فلا بسملة، ولا حمد لله، قال متوعدا:

- "كما مات جدي الشهيد محمد أبو سويلم متشبثا بترابها سنَقْتُلُ ونُقْتَل، نحن من نسل تجري الحرية في دمه، سنموت وتحيا الأرض"

وقالت ابنة شرين يلمظ وهي محامية شهيرة:

- "بالقانون سنوقف كل مشاريع الفوضى والجهالة، لا ضرر ولا ضرار، وإني لأتساءل عن معنى ما يحدث هنا؟ وعلى يد من؟ ولماذا؟، أتقتلون الخُضْرة من أجل الحَضْرة؟، أتجلبون الخراب لأرض العمار؟، أتحسِّرون النيل على عطائه

لنا منذ آلاف السنين، يا سيادة النائب راع الجوار، وحقوق الجارعلى الجار، يمكن أن نقيم مسجدا للتقوى لا ضريحا فارغا للفوضى في مسجد للضرار؛ هذا وإلا فإننا لن نسكت ولن نستسلم؛ رحم الله يلمظ باشا، ورحم الله محمد أبو سويلم.

ساد المكان صمت طويل حتى قطعه صوت الشيخ ريحان برهامي:

- حي.. مداااد؛ وعلى طول المدد

صفق..ثم مال يمينا وشمالا منشدا:

يا سيد السادات جئتك قاصدا

أرجو رضاك و أحتمي بحماك

والله يا خير الخلائق إن لي

قلبا مشوقا لا يروم سواك

علا صوته ناشجا فتجاوب من حوله معه، وزاد وعاد ليمدح الرسول صلى الله عيه وسلم:

ودعوت أشجارا أتتك مطيعة

وسعت إليك مجيبة لنداك

الماء فاض براحتيك و سبحت

صم الحصى بالفضل في يمناك

هذا ثم ختم بحديث للنبي صلى الله عليه وسلم قال:

-من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم أنّه قال: أنا عند ظنّ عبدي بي وأنا معه حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرتُهُ في نفسي وإن ذكرني في ملإٍ ذكرتُهُ في ملأٍ خير من ملئه وإن تقرّب منّي شبرا تقرّبتُ منه ذراعا وإن تقرّب منّي ذراعا تقرّبتُ منه باعًا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة.

العجيب الغريب أن المجتمعين كلهم تقريبا إلا رؤساءهم وحوارييهم انسجموا مع الشيخ ريحان وتجاوبوا تصفيقا وذكرا، لم تحرم النخلة نفسها من المشاركة ليصاب المعارضون بالذهول، ويخرسهم الموقف بكل مشاهده ومفرداته...

من قصر المرجان أصدر"النفري"قراره لأكبر شركات المقاولات المقاولات ببناء قبة النخلة على غرار (قبة الصخرة) غير مبال بالمعارضين من جيرانه؛ في ركن غير بعيد عن ضفاف نهر النيل الخالد الذي ألهم المصريين أجمل الطقوس وأحلى الأساطير بمباركة الشمس في أرض الخصب، وتفاعل الموقف برمته بوجدان النائب البرلماني وعقله:

- "أمن الضروري لك أو لغيرك أن تكون في كل الأحوال منطقيا ومقبولا؟، "أقول لكم ولنفسي، من واقع حياة تذخر بالمفارقات والمتناقضات: ليس ضروريا، وأنت تعرف ما تريد.." ثمة

كلمات نسمعها ولا تشبهنا؛ كما أنها لا تتسق مع واقعنا، لا مع أحلامنا منها كلمة "المنطق" هذه، يحسن بكل شخص أن يعبر بما يشبهه، ويشبه الأمر المكلف به سواء كان التكليف من الأرض أو من السماء"، ألا ترون كم من الرجال هنا وفي كل الدنيا لا إيمان لهم ولا شرف؛ وفجأة يصدمونك بأنهم قد تملكوا الشرف، ينسبونه لأنفسهم؛ ولرضا الله عنهم، والحقيقة أنهم أبعد الناس عن الله، وما نالوه ما هو إلا من عند أنفسهم الأمارة بالسوء، وما عند الله – وهو حق– ينسبونه لأنفسهم، ثمة أشياء هشة تصير بالتعزيز والدفع والرعاية تصير كيانا وكينونة وحديث بالنفس الأمارة وبالأنا العليا تسمعه يهتف: كم طفل عريانا تعهدته أنا النفري فكسوته، ورعيته فأصبح بفضل الله ثم بفضلي رجل المرحلة الحالية والآتية، دورك آتٍ يا برهامي!

من اللحظات القليلة والنادرة أن يقف الرجل مع نفسه يتحسس ما في رأسه القذرة والتي قُدَّتْ من جلمود فلا تقبل التغيير أو التفكير في التنازل، وها هو يتوسل إليها بأن تتأنى في الآتي حتى لا تتراكم الأخطاء والآثام ويعجز عن الحركة وتدبير أمور كثيرة تنتظر قراره فضلا عن رغبته في منح نفسه سلاما وطمأنينة، ومعه أحباءه، ابتسم بصعوبة كأنه عثر في كم الركام بداخله على "تكتة"

سمعها؛ فدغدغته؛ لكن سرعان ما علا صوت بداخله يبصره..

- لا.. لا يمكن أن يلتقي الماء والنار.. لا.. إن الذي أنجاني يوم امتلأ زورقي بالماء سينجيني إذا امتلأ الزورق بالأسماك"

صاح بجانبه الشيخ ريحان:

- "ليس كل من لبس العمامة يزينها، ولا كل من ركب الحصان خيال"

آ.. إن طموحات بعض البشر تترجمها مظاهرهم وأشكالهم بغض النظر عما يملكون من مهارات وملكات، وإلا بمَ تفسر العمامة الخضراء على رأس هذا الشيخ المجنون بفكرة الفوضى؟، وعما تعبر النظارة السوداء على وجه ابن سويلم؟ وكثرة الحلي والزينة عند بنت يلمظ طرب زادة؟، ومجيء مدير الأمن بجلباب وعباءة؟ المظاهر هنا كثيرة وكلها تعلن عن شيء واحد"المصلحة" وأن النفري أستاذهم ونائبهم فيها، حقيقة لا يطيب الصراع ولا يحتدم مع حيوان مستأنس، والوحوش الضارية لا تختار الحلبة، وطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم..

هذا الشاب حفيد السوالمة يعيش الحلم أقوى مما عاشه جده الشهيد، وإني لآسف له فلن يجني غير الخسارة، ولن يتجرع غير المر؛ وكذلك المحامية العثمانلية، فصيحة، ومقنعة لكنها كصفير الريح في الغرابيل، قال مسمعا من حوله:

- "علينا أن نحب الخشن، وأن نركب الصعب ولو بدافع الضلال والخداع "..

حيطانٍ وأبراجٍ: وحدائق زاهرة ستحتضن باقات البخور، وقوارير العطور بقعا خضراء نورانية ومشمسةً قريبا بلا فجوات رومانسية تبهت فكرة الروحانية؛ ولا توحي بغربة المكان ووحشته، فقط مكان يدخل بالإرادة والهيمنة رحاب القداسة؛ ليكون مزارا فتانا دائما، مسحورا بالوهم والخرافة تحت القباب وإيحاءات الأمكنة التي تشد إليها الرحال.

لا شيء يصعب تسويقه؛ حتى طقوس الوهم، طالما خيم الجهل، واقتنع البسطاء بالدجل، ولم يبخل المال بملء الجيوب والبطون.

"المسافة المتعرجة والمظللة بين اللحظة هذه، وقادم الأيام ستظل ممتلئة بما لا يفهم وبما لا يدرك ولكنه يحترم ويقدس"

كأنما أسمع أسلافه في مقابرهم، وكأنهم زحفوا منتشين للفكرة؛ ومشجعين لما يفعل، ولم يتأخر عن التأييد معاصروه ومنافقوه.

في منتصف الجلسة طفت الساقية فوق قبة النخلة أو هو خيل إليهم أنها تعلو وتطوف كمعجزة نادرة الحدوث ودارت تنعر في فلك القمر الباهت؛ ورؤيت فتاةٌ حبشية ترفع تنورتها وتستقبل الشمس في حجرها أمواجا من نور تنثره مبتهجة بأرض الساقية أرض النخلة والرطب، وبغارٍ من سعف النخلة، وعراجينه تطوق رقبة

الشيخ ريحان وكلاهما تملكه الابتهاج والانجذاب والكل يحب أن يصرخ: – ياهووووه.. مدد.. مداااد.. مداااد..

الكل تغذى على الحلم؛ وشرب عصير التجلي، ومنقوع الوهم والفوضى، غدا تدور عجلات الإنشاء والترويج على أعلى مستوي وفي خضم الأحداث الكبرى تطفو أحداث صغيرة لا تخلو من طرافة ودلالة..

استدعى النفري أحد رجاله العاملين عنده في الزراعة المدعو "عسلو"وهو في مجتمعه أشبه بجحا في عصره له من النوادر والطرف الكثير والكثير.....

عسلو.. كدود الأرض يُرى هذا الشخص، عودا من أعواد الناس المطحونين في الأرض وراء لقمة العيش، يعمل بأجر يومي عند"النفري"وعليك أن تقبله كما تراه وكما هو في عين نفسه وعيون الآخرين، فعلا كدودة انتبذها الطين والعفن يعيش وحيدا مع أمه وأخته من بعد وفاة أبيه غريقا في النيل في يوم نوى فيه الاغتسال قبيل العيد، لم يستمتع عسلو بأبيه، تلفتت أمه حولها فلم تجد غيره معينا على المعيشة، ألبسته جلباب أبيه بعد تجسيمه عليه ليبدو فيه كعود كبريت متفحم؛ وقالت له بخشونة "أنت الآن رجلنا.."، نحيلا بدا في الثوب الأزرق، عينه النفري في مزرعته (كلافا) للبهائم والخيول، فرح الفتى بالوظيفة لسبب لم يرتبط إلا

به هو وبوجدانه هو وخياله هو، السبب هو حبه للبغل الذي يشبه لون جلده لون العسل الأسود، والعربة التي هي دائما في خصر البغل بضخامة صندوقها الخشبي وعجلتيها الضخمتين، لم يمر يوم دون أن يملأها بروث البهائم مختلطا ببقايا القش والعلف، ويذهب به إلى مقبرة خاصة للتخمير وصناعة السماد العضوي يقلبه ركاما بعضه فوق بعض ثم يعود ممتطيا صهوة القيادة، لم يتأفف، لم يتأذ من رائحته، ولا من قذارة وجهه ويديه وجلبابه، بل لم يفكر مرة في التغيير أو تحسين وضعه بعيدا عن البغل وعربة الروث، أحب الناس وأحبوه، وأصبح اسمه محور تندرهم وتفكههم في البيوت وفي المقهى القريب من الطريق الزراعي، جاءه التغيير من الباشا نفسه؛ إذ أضاف إليه قيادة أحد الجرارات الزراعية وسلمه له كعهدة كما البغل والعربه، تنام الناس وتصحو على المقلب الذي فعله عسلو بالشيخين مصطفى ناعوس ومحمد غطاس، كلاهما شيخ أعمي يسترزق قوته من القراءة في البيوت وعلى المقابر.. طلبهما المركز للمثول عند المأمور، أسرعا على أقدامهما فرحين بنفحة حكومية، اعتمد كل منهما على زوجته في طي الطريق حتى بلغا ساحة المركز، انتظرا طويلا وكل منهما يحسب: كم ستكون عطية الحكومة الرشيدة، نودي عليهما تحت عنوان مخالفة السير على الطريق الأسفلتي بجرار زراعي مما

أتلف الأسفلت، دخلا، نظر المحقق في الأوراق التي أمامه وإلى الشيخين الأعميين ولم يغب عن ذكائه أن (الكوموستابل) شرب مقلبا من العيار الثقيل، نادى المحقق على سائق الجرار المخالف:

- محمد غطاس

رد الشيخ قصير القامة:

- أفندم

ثم نادى على صاحب الجرار:

- مصطفى ناعوس

رد الأطول وذو العمامة الخضراء:

- أفندم

طوى المحقق أوراقه وأمرهما بالانصراف لكنه سألهما عمن يسوق الجرار عند النفري..؟.. في نفس واحد قالا :

- عسلو

ضحك المحقق وقال خذوا حقكم منه.. حضر عسلو مرتجفا أمام النفري فوجد عنده مدير الأمن ومأمور المركز والشيخين: ناعوس وغطاس ففهم سر استدعائه، طالبه النفري بالهدوء والاطمئنان بينما مدير الأمن يضحك ويميل على نفسه من شدة الضحك ويقول لعسلو:

- والله أنت أذكى إنسان شفته

وقال النفري:

- رجالة النفري دايما أذكياء،الدور على رجالتكم يا باشا.

زام الشيخان والتصقا ببعضهما، ناداهما النفري وأعطى كلا منهما مبلغا محترما، وبعد أن طمأنهما صرفهما وهما في منتهى السعادة، ولم يفوتهما المشاركة في الذكر والمديح لمن يسمى عسلو.. تقدم أحد الضباط من مدير الأمن وحياه التحية العسكرية..

– برغم تخليه عن بزته العسكرية – وقال:

– خبر مؤسف يا فندم حفيد أبو سويلم

– ماله ؟

– إنه ضمن غرقى المعدية الخمسين.. الخبر جاءنا الآن.

أظهر النفري حزنا ممزوجا بالغضب وهو يعرف من وراء الحادث وتدبيره قال:

– ماذا يجري؟ كل ما نفعله بأراضينا، ماذا جرى للدنيا وأهلها؟

– (القدر) يا باشا..

قال مدير الأمن:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال النفري:

- " إنا لله وإنا إليه راجعون"

لكنه أوقف الاحتفالات حدادا وانطلق مع مدير الأمن إلى موقع الحادث كواحد من المسؤولين، المأساة فادحة وعميقة عند الشاطئ الذي شهد غرق المعدية، شرطة وإسعاف وغطاسون ومسعفون، صراخ ونواح ولطم، تراب وطين وسواد، الجثث تطفح الماء مرا من الجوف، الناجون القليلون يطفحون الرعب والخوف، علامة الاستفهام الكبرى تنبعج ثم تنفجر في الفراغ، بين يدي المجهول، وحين أطفئت الأنوار في الموقع الحزين، كانت النار تشتعل بقوة تحت جلود الثكلى واليتامى والأرامل وهم يقلبون وجوههم في السماء ويحتسبون غرقاهم عند رب كريم عادل "يمهل ولا يهمل"...

عاد إلى مشروعه منتشيا بما حدث لحفيد أبي سويلم، لكنه بالطبع لم يظهر غير الحزن، ولم ينطق بغير الترحم عليه والدعوة لتشييع جثمام الشاب الشهيد، ولم يوقف العمل وقال في نفسه وهو يكافئ "عسلو": – أول الغيث.. عقبال سلسال يلمظ طرب زادة.

تحرك النفري عائدا إلى قصره، ولم يزل صوت ريحان البرهامي يصدح ويكرر:

يا آمنة بشراك سبحان من أعطاك

بحملك بمحمد رب السما أعطاك

النبي صلوا عليييييييه !!!

لم يكد يصل النفري إلى بوابة قصره قبيل المغرب بلحظات حتى سمع زخات من من بنادق آلية كثيفة وقريبة، ورأي وفودا من جماعته يلتفون حوله وهم يلهثون، بعضهم يلطم ويبكي، لم يمهلوه حتى يستفهم، باغتوه بالخبر المؤلم:

- جماعتان مسلحتان من السوالمة والعثمانلية هاجموا محلات الذهب، ومشروع القبة..

سألهم بفزع:

- متى؟.. أصوات الرصاص هذه من حوض الساقية؟
- نعم يا باشا كانوا قصدينك؛ وجوز بنتك، الحمد لله نجوت أنت.

بفزع شديد وقلق: وهادي؟ ماذا جرى له؟

- نقل إلى المستشفي في حالة خطرة، لكن المحلات سليمة.
- ونعزيك يا باشا في الشيخ ريحان..
- ما هذا ؟ تحول سريع؛ ومفجع، يا ألله !!!

أظلمت الدنيا في وجهه، لم يعد يسيطر على حركته أو اتجاهه سَكَتَ مُنْقَسِمَا، أَنَّ.. مَدَّ الصَّمْتَ الْفَارِعَ أَشْجَارًا، بَدَتْ تَضَارِيسُ ملامحه الصخرية يَقْهَرُهَا الْبَخْر تَحَسَّسَ وجها باردا، لَاقَاهُ مَدُّ العنف طَافِحًا بِالرَّغَبَاتِ. جَارِحًا كَنَصْلِ مُحَارِبٍ فِي الْغَزَوَاتِ. مِنْ بَعْضِ حوارييهِ وأتباعه من يتطوع لمنحه قُبْلة الْحَيَاةِ.

مَا بيْنَ شِمَالِ الْحَسْرَةِ وَيَمِينِ الْخُضْرَةِ، فُلْكٌ يَرْمِي بِشِبَاكَ الْحُلْوَةِ وَالْمُرَّةِ وَسُؤَالٍ مِنْ عُمْقِ اللحظة:

-مَنْ أَنْتَ؟ وَلِمَ هَذَا الْكَمُّ مِنَ الْغليان؟ عَهِدْناكَ مَفْتُونًا بِالْبَكَارَةِ، مَأْخُوذًا مِنْ أَطْرَافِ الضَّوْءِ، تَكْرَهُ التَّطَّوَافَ فِي الْبَرِّيَّةِ، كُنْتَ دَوْمًا مَعْرُوفَ الْهَوِيَّةَ، وَالْعُنْوَانْ، هَاتِهِ هَاتِ مَا عندك كَالشُّعْلَةِ بَيْنَ الْمَوْجِ، وَجَبَلِ النار، لا تكن كَالْوَرْدَةِ فِي يَدِ الْوِحْدَةِ، وَزَئِيرِ الصَّمْت. تَبْسُطُ مَدًى وبفيض الشذى، الآن.. نَصْرُخُ: هَا نَحْنُ. إِنَّهَمُ الْآنَ كأنهم لَا يَعْرِفُونَكْ. يُنْكِرُونَ صَوْتَكْ. يعمقون مأساتك، ويبُارِكُونَ نَـزْفَكْ؛ فَرِحُونَ حَقًّا بِغُرُوب إِنْسَانْ..

مضى وقت غير قصير حتى أفاق ووجد حوله زوجته وابنته روان وابنه رشدان، تماسكوا على قدر الإمكان واتجهوا للمستشفى حيث تجرى الإسعافات الأولية والعاجلة لابن أخيه، وزوج ابنته الأعز عليه من كل أبنائه.

تشاور مع الأطباء؛ وسرعان ما تم الحجز لاستكمال العلاج في إنجلترا، وسرعان ما تمت التحويلات اللازمة وقبل أن ينقضي الليل كانت الأسرة كلها مع المصاب خارج البلاد على متن طائرة خاصة. لقد وجد المساعدة السريعة والعاجلة من كل الجهات الرسمية وغير الرسمية، ورغم انشغال البيت الرئاسي بمصيبتهم في وفاة

محمد علاء مبارك، الحفيد الأثير لدى جده وجدته؛ فإنه لم يتوان أحد منهم عن مد يد العون والمساعدة..

سافر الجميع، ولم يبق في مصر غير النفري الكبير يدبر شؤون حياته التي هزتها بعنف هذه الحوادث التي فاجأته، وأصابته توابعها بالدواروالحيرة، تراوده منذ الحين أفكار وأحلام؛ فما جزاء من أراد به وبأهله سوءا؟، العفو؟، السجن؟ أم هو الاستسلام؟ وقبض الريح؟، وتاج كأنه العار؟، شُيعت إلى القبر أحلامٌ، نامت بطي الأكفان أمال، "استعذ بالله واستغفرْ، فما بك إلا رغبة في الرد والانتقام"، الوقت حوله يتساقط ويتراكم، وكأنه آتٍ من مغارة ليل أسود مدلهم السواد ليل لم يعهده من قبل، ولا مر بمثله في حياته، أطل عليه البدر كليلا محاطا بالغيوم، فاستسلم القلب مليئا بالهموم، بالله ماذا جرى؟، لم يعد يخاف، الآن وهو النفري بجاهه وجبروته يسكن مواقع التصبر والاسترجاع، يحتويه عويل الليل نغما حزينا مسكونا بالمر المذاب في نشرات الأخبار، مواقع التواصل الاجتماعي التي تدعو الشعب علانية للثورة في ٢٥ يناير ٢٠١١م دعوة صريحة، ومدوية تلمع بألق في حسابات الشباب والمراهقين، يظهرون أندادا للسلطة الحاكمة، يصرخون في مواقعهم:لا ترفعوا في وجوهنا حواجبكم دعونا نمر من ثقوب الزجاج في عيونكم. حتما سنمر كما النور في الفجر يُسْقط في

اللحظة الأولى بسجف الظلام، وحجاب الخوف، وتُمَسِّدُ برموشها الوجع في جسد الوطن.

خشي أن يتسرب الوقت من بين يديه، فأشارإلى أخيه شندي ومن حضر من أبنائه وأقاربه أن يجهزو ضريحا للشيخ ريحان بجوار النخلة، انطلق هو إلى القاهرة وإلى الجيزة تحديدا حيث يوجد ابن طليقته الشرقاوية (عصام عبد الحميد النواوي) وهو مدير فرع أحد البنوك الاستثمارية، فوجئ مدير البنك بمن رباه وصرف عليه أمامه، وقف له وحياه وعلامات الدهشة بل الفزع تسيطر عليه، طمأنه أبو البقاء وحكى باختصارشديد ما جرى له، وأنه الآن يكاد يكون وحيدا وفي حاجة إليه، وإلى الدكتورة "إيمان النواوي" شقيقة عصام من أمه..

- تعرف كم أثق فيك وفي أختك الدكتورة!!
- ماذا تريد يا عمي
- قل يا أبي.. فأنا ربيتكما صغارا، ولم أتخل عنكما حتى بعد انفصالي عن أمك وزواجها.
- نعم يا أبي
- أريد أن تحل محل هادي في إدارة محلات الذهب، والخزائن حتى تتضح الأمور.
- وشغلي في البنك؟

- سندبر كل شيء بحيث تكون فترة وجودك معي أجازة بدون مرتب..
- وماذا عن إيمان، وهي مدرسة بجامعة المنصورة بكلية الطب؟.
- كل شيء محسوب حسابه.. أنسيت من هو النفري..أسبوع على الأكثر وكل شيء يتم على أحسن وجه، وبسرعة لأن الوقت ليس في صالحنا.
- سمعا وطاعة يا أبي العزيز.. الآن إلى البيت لتسلم على أمي ونعرف موقف إيمان.
- أظنها لن تكون أقل منك.

حين رجع من القاهرة إلى سوهاج لم تفارقه صورة إيمان ابنة زوجته، جمال وعلم وأدب وحشمة، ولقد هجس في نفسه هاجس يربط بين الدكتورة إيمان والدكتور رشدان، سرعان ما طرد الهاجس وعاد لطبيعته ومصالحه..

تتابعت أخبار الوطن مؤسفة بل مخيفة "احتراق قطار الصعيد قبيل العيد" "تصادم قطاران عند قليوب" "مزلقانات الموت.."

"انهيار البيوت في الاسكندرية" "إقالة وزراء" "تغيير حكومات" "تصاعد الاحتجاجات والمسيرات" "الحشد المستمر للتظاهر في ٢٥يناير القادم"، الناس.. معظم الناس كلما تقدم بهم السن تراهم

يكتنزون الحكمة والخبرة، فمنهم من يستثمرها استثمارا صحيحا، ومنهم من لا يهتم بذلك، ولا يستسلم لمثل ذلك، بل يعتبره خرافة ووهما .

وها هو النفري في الربع الأخير من عقده السادس يحاول أن ينسى ما تعلمه في الجامعة، وفي السياسة متناغما فقط مع ما يخدم مصالحه، وعلاقاته.

إنه-مثلا-أصبح يتجاهل بعض النظريات، الدعوات الاجتماعية لمجرد أنها ضد ما يريد، وضد ما يخطط له، ويتجاهل ما يرد في نشرات الأخبار، وبرامج السهرات عن ضعف النظام السياسي والحزبي، وأن الهاوية قريبة، ولا أحد ينتبه للنار التي تسري في الهشيم. لم يعجبه أحد مثل ما أعجبه الشيخ الشعراوي إلا حين وقف لمبارك وقفته المشهورة بعد نجاة مبارك من حادث محاولة اغتياله في أديس أبابا، يراه موقفا لا ينسى، مما قاله الشيخ الشعراوي:

- أود أن أقول كلمة موجزة للآمة كلها حكومة وحزبا ومعارضة ورجالا وشعبا آسف أن أكون سلبيا أريد منهم أن يعلموا أن الملك كله بيد الله يؤتيه من يشاء فلا تآمر لأَخْذه، ولا كيد للوصول إليه، ولن يحكم أحد في ملك الله إلا بمراد الله فإن كان عادلا فقد نفع بعدله، وإن كان جائرآ ظالمآ بشَّعه الظلم

وقبَّحه في نفوس كل الناس فيكرهونه كونه ظالمآ، فأنا أنصح كل من يجول برأسه أن يكون حاكما أنصحه بآن لا يطلبه بل يجب أن تطلب له وقول الرسول"صلى الله عليه وسلم": من طُلب إلي شيء أعين عليه، من طلب شيئا وكل إليه صدق رسول الله"صلى الله عليه وسلم"، إذا كنت قدرنا فليوفقك الله، وإذا كنا قدرك فليعنك الله علي أن تتحمل...

صفق الحاضرون، وكبروا حنيئذ للعالم الجليل ولم يصفق النفري بل زاد وأخذ موقفا معاديا من فضيلة الشيخ الشعرواي حتى مات يرحمه الله مستريحا لكلمة حق قالها، حركت كلمة الشيخ مشاعر الحاضرين لكن النفري تعمد تجاهل ما سمع، بل وتعجب من موقف مبارك السلبي من الشيخ، وبدا كمن أصيب بالتشاؤم، وبعض الإحباط و...

- حين تنكسر في النفس الإرادة وينحني الاختيار، يشتد الصراع بين الأمل والأمل، بين اليأس واليأس، ولا تتواصل اللعبة

قالها لنفسه: "احرصْ على ما تبقى من مدد"

اِحْتَشَدَ مِلْء الْإِهَابِ.. غَازَلَتْهُ الشَّمْسُ قَرَّبَتْهُ مِنْ لَيْلِ الْجَمْرِ..

مَا عَادَ إِلَّا عَيْنَانِ بُحَيْرَتَانِ مِنَ دم وَهمْ، ربَّتَتْهُ الْمفاجأة النارية كأنها تفيقه، احْمَرَّ جِلْدُهُ مَدَّ غُصْنًا مِنْ رُمُوشِهِ، وَرِيشِهْ، هَزَّ جَذْعُهَ

الْمَوْسُومُ بما يكره ويأبى، تَسَاقَطَتْ مِنْ أطرافه الحيرة، وعناقيد الغضَب، قدمها لنفسه، أو قدم نفسه لها، أَ كَلَا مَعًا، شَرِبَا مَعًا، سَكِرَا مَعًا ثُمَّ اسْتَخْرَجَ فَي الْخَلَاءِ الْقَدَاسَةْ؛ وَتجَشَّأ الْقيمة وَالقُامةَ، أَنِينٌ شَجِيّ مِنْ تَحْتِ عَبَاءَةِ الْنائب، رَاحَتْ الأحزان والكوارث تحاصره، تضيق عليه الخناق تَتَمَايَلُ عَلَيْهْ وَتُرَتِّقُ بإبرها الطويلة ما تفتق، وتمزق من حوله كَأَنَّهَا بِودٍّ تَمْسَحُ عَنْهُ عَارَاللحظة.

فَتَحَ كِتَابَ حَيَاتِهْ، تَعِبْ، اسْتَرَاحَ فِي الصَّفْحَةِ الْخَاطِئَةِ، عَادَ لِلشَّمْسِ تُغَسِّلُهْ، وَاللَّيْلِ يُكَفِّنَهْ

– "يَا حَلْمِيَ الْمُحْتَشِدْ، أَنَا هُنَا حمَّالُ آلَامٍ، دفان أحلام، وَ..أَنْتَظِرِ الفرج"...

أذكر منذ المخاض أني أنا المنذور للفداء كواحد من أبناء القطة السوداء، مولود ذات مساء على يد الغولة خلف الباب، قطعوا ما بيني وبينها بالمنشار وبالحبل السري المقطوع ربطوا الليل بالنهار من هم أطراف موقعة المخاض تحت جذع النخلة؟، "كنا في بَرَادٍ وهناء يصبُّون في كفي الموعود بأعذب الأحلام مقتنعين أن الزمن عندهم لن يدور وأن الشمس لن تغيب، ألبسوني تاج السلطان، نمت في القماط وحيد القرن، أضحك للسكارى في تابوت الثوار، المربوطين بالحماس والأمل في ربيع الصحوة،يستمتعون بأغاني

الليلة وسبوع المولود عنوة، ملأوا الأرض دمعا؛ فالوقت جبان، والصمت رهان"...

في حضن الفكر ينبغي أن نجتاز الحواجز والموانع نصلا بعد نصل، ولا ينبغي نسيان أن الأزمة إن تفرعت طالت وتجذرت، وقد تأتي بأوخم العواقب، ولا تنس كيف تنتخب اللحد؛ فأحيانا، أحيانا الحب قبر، موت، يرصد أنفاسك، خطواتك، يسحب منك الوعي، وأعمدة الضوء، يزيدك من رصيد القهر يحسبك فورا كفتى من أهل الكهف؛ فلا تستسلم لوطأة الغيب، والجب، وقصة الذئب تأنَّ، لكن لا تنتظر طويلا حتى ينفرط الأمر، وتتعقد خيوط الشبكة فيما يسمى الصبر، فورا، قام بتحويل كل ما لديه من أموال إلى حساباته في أوربا وأمريكا، وقليلا إلى دبي، لم يبق في خزائنه غير الذهب، والتحف النادرة من الآثار، والجواهر..

اطمأن على استقرار الجميع في لندن بعدما اشترى لهم قصرا في إحدى ضواحيها المميزة، كما اطمأن على انتظام التقدم في علاج هادي النفري والتفاف الجميع حوله، حمد الله ثم نادى فضل الجناييني، أسرع المدعو بالحضور، والمثول بين يديه؛ فسأله:

- ماذا تم في جنازة الشيخ ريحان؟

- الله يرحمة.. دفن كما أمرت سعادتك بجوار النخلة ليكون جزءا من المشروع سعادتك.

- الله يرحمه، لا ينبغي أن يوقفنا شيء عن إتمام المشروع يا فضل
- بالتأكيد سعادتك، وأبو مرتضى شندي هناك يباشر العمل مع المقاول والمهندسين
- تمام.. البلد شكلها رايحة في داهية.
- يا ساتر يا رب.. كيف يا باشا.؟
- آنسيت أنك موش بتاع فيس بوك.. الشباب يحرضون على الثورة ضد مبارك
- ليه.. والله الراجل طيب.
- خلاص.. فكرة التوريث هتضيعه
- الأسد في سوريا أجلس بشار مكانه، والقذافي ناويها لابنه، وحتى علي عبد الله صالح في اليمن، جمال بيه موش وحش.
- أمه هي اللي وحشة يا فضل.. بقولك ايه؟ ادخل خليهم يجهزوا الغدا على بال ما كلمهم في لندن.
- حاضر يا باشا
- آلو.. رشدان
- السلام عليكم يا حاج
- طمني على هادي وعليكم

- كله بخير يا بابا.. تحسن كبير في صحة هادي بعد إحراج رصاصتين من الرئة والكتف الأيسر، وعلى فكرة الدكتورة إيمان هائلة، ما هذ العلم وهذا الأدب والجمال يا أبي
- تربيتنا يا دكتور، وماما أخبارها إيه؟
- ست عظيمة، ربنا يخليها لنا، تقريبا خطبت إيمان واعية تماما أنها ابنة من كانت زوجتك، يالمفاجئاتك يا كبير

اغتصب الأب ضحكة وقال:

- نعم؟ غاب القط إلعب يا فار، أنا ما زلت على قيد الحياة يا دكتور.
- نعم نعم لا يمكن نتخطاك يا بابا، دي تلميحات بين ماما وأختي روان
- تريدون إحراجي مع السيدة الوزيرة
- لا يا باشا، عموما، وتقريبا عصر مبارك انتهى
- (بغضب) بتحلم يا دكتور زي ابن عمتك التعبان
-(بمرح ومزاح) شباب صح، المستقبل لهؤلاء، لكن ما رأيك في الفكرة؟
- أي فكرة يا دكتور؟
- فكرة زواجي من الدكتورة إيمان؟
- مصالحنا يا دكتور

- اطمئن.. المصالح تتصالح
- (بخبث سياسي) انت نسيت إيسار؟
- والله.. إيمان..إيسار.. الحي أبقى من الميت هههههه.
- طيب يا دكتور لنا لقاء قريب.. دعني الآن
- محطة الجزيرة مولعة الدنيا
- كدابين.. سلامي لمن عندك.. السلام عليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أتعبه البوح كالمخاض، استشعر وجعا ضاغطا على أعصابه وروحه هيأ أعضاءه ونفسه لبوح جديد. برز الوجع باسقا كسيخ المدفأة. تشبث به مذعورا؛ لم يجد حوله من يسعفه، تناول طعامه سريعا وخرج مسرعا ومتجها إلى مقهى البشوات، كان في شوق لرؤية مرتضى ابن أخيه شندي..

أخذ ركنا قصيا من المقهى المزين بصور بشوات ولوحات وراءها عهود وتاريخ وحكايات لا يمكن أن تنسى، توقف طويلا عند صورة محمد علي باشا الكبير، هز رأسه وقال:

- لم نزل في ملعبك يا كبير

حضر مرتضى فتى ممتلئا، نظيفا لايني عن الابتسام، قبله عمه وأجلسه بجانبه ثم مسح على رأسه وقال له: -مرتضى.. ادع لعمك قال لعمه: - منصور إن شاء الله

نام الخلق ملء جفونهم وتحت الجلد من يقاضي ويختصم طفح الكيل أخيرا، حين يمن القلب بأحلامه يجري الدم القرمزي بسيقانه وأغصانه، حين نرفع للحب القبعات وللمولود في رحم العذارى رايات الشكر ودعاء الأمهات، نطلق الآه لوعى في ضمير الذكريات الآن، الحب مات، الحب مات أيام أعوام أرقام، زمام العقول بيد الأحلام، ألم يكن المفتاح كافيا لأقفال الأبواب أمام هذا العصف من الرياح، مضطر للصراخ أو للنباح أو إطلاق السعار وطلقة في الرتاج، حائر كوعل يتضرع بيديه، يلف ويدور داخل غرفة نومه والشاشة الصغيرة تبث إليه ما لا يسر. ألقى بنفسه وبكامل ملابسه على سريره ليأخذه النوم في شراكه ويحرمه ادخار الوعي، ملتهبة الأخبار دون هوادة، الثورة في ميدان التحرير والسويس والاسكندرية والمحلة الكبرى لا تعرف العوائق، ولا تهادن لقد انفجر الشعب من كثرة الضغوط عليه ومن انتشار الفساد والظلم في طول البلاد وعرضها، ثورة، نعم إنها ثورة شعب، يصله الهتاف بقوة وإيمان،الشعب يريد تغيير النظام" "الشعب يريد إسقاط الرئيس، "ارحل، ارحل"...

تليفون عاجل من أمين عام الحزب الوطني:

– آلو.. نعم يا فندم..

– نعم ؟ كسر رخام؟.. فيه.. موجود.. كم شاحنة؟..

- حاضر.. بالضبط ٢٤ساعة تكون الشاحنات الخمس في التحرير محملة بالحجارة وكسر الرخام..

وكان السيد أبو البقاء النفري قد قال في تصريحات صحفية:

- إن المواطن يقوم اليوم بحراسة بيته وأسرته وممتلكاته بنفسه، وقد أصبح السلاح ضرورة لازمة، خاصة أن أزمة البطالة في الصعيد تفاقمت كثيرا، مما أدى إلى انتشار جرائم السرقة وخطف الشباب والصبية للحصول على مبالغ مالية".. وأوضح أن العلاج يكمن في ضرورة وجود الأمن المكثف خاصة في القرى، وانتشار الحملات الأمنية اليومية لجمع الأسلحة وفرض سلطة الأمن وحماية الأشخاص والأموال والممتلكات في تلك المناطق، وزيادة حملات التوعية الدينية والاجتماعية ومعالجة مشاكل البطالة وارتفاع الأسعار ووضع خطط شاملة للنهوض بالصعيد.

التفت إلى حائط بجواره، تأمل.. توجد ساعة قديمة تدق حين ينقرها عصفور"زرزور" يغني لحمر الخدود لتحمر أكثر، توجد أفعى في عش به بيض كثير لنقار الخشب، توجد بحيرة يستحم في بخار مانها الضوء، فوقها جسر خشبي قديم تعبره عربة مدججة بالخيل المسومة، في الخلفية المترامية مآذن أندلسية لا تنطق وقد علتها غربان سود، قريبا من منحدر الجسر معلمة مع

أطفالها يلوكون أناشيد الهجرة "والحلم بالعودة"، يظهر تحت الأفق الغربي إنسان الغابة بسمته التاريخي؛ وبيده هراوته التي تشبه فك حمار يهرول نحوك غاضبا إذا اهتبلك الجوع أو العطش...

اللوحة معلقة على جدار أحد ممرات قصره ولا ينظر إليها أحد، تعجب لجمالها؛ لكن سرعان ما انصرف عنها.. تأكد أبو البقاء من انهيار النظام وزوال دولته فاستعد ليلحق بأسرته في لندن..

- رتب مكانه شندي أخاه ليشرف ويصرف على مشروع الضريح والقبة مع تعديل بسيط أن يكون تحت القبة ضريح الشيخ ريحان..
- حول بالتهريب تقريبا كل ثروته ومدخراته ولم يعدم المساعدة الرسمية أو يتوفيرها بالرشوة والسلطة

قبل أن ينهي خدمة سائقه النوبي؛ على أمل استدعائه إن عادت الأمور على خير، كلفه بوضع تمثال له شمعي في الكرسي الخلفي لسيارته، ونبهه أن يلف التمثال بعباءته، قبيل العشاء يذهب بالسيارة أرض الساقية حيث الكل في انتظاره للقضاء عليه، سيخدع الجميع في التمثال وينشغلون به بينما أكون أنا في طريقي إلى مغادرة البلاد، واللحاق بالأسرة في لندن، والحمد لله، القصر والأموال، والأولاد والمستقبل هناك، نعم، لا مستقبل لأمثالي هنا وتقريبا كل حاشية الرئيس مبارك، وحريم سوزان هانم كلهن بخير،

لم تصب الثورة رمزا واحدا من رموز المرحلة، فترة وتعود مصر لأحضان العسكر، بينه وبين نفسه كان يردد:

- أيُّ الأصوات تُسمع، أي كلمـة، من أي منبر، أهكذا، وبهذه السرعة، ياله من كابوس فظيع!، لا لا شيء مفاجئ؛ كنا نرى ونسمع لكننا لم نهتم، ولم نقلق، هذا العصف الثوري أطل أكثر من مرة على كل من في السلطة، لا أبالغ إن قلت أنه كان يعيش بداخلنا وسمعنا من ينبهنا إليه ويقول لنا:

- الثورة، الشعب لن يسكت، سيثور..

لقد جاءتنا رسائل كثيرة، قرأناها وسخرنا منها حين قال مبارك:

- "خليهم يتسللوا" !!

كأنه كان يعرف إلام سيئول الأمر، كانوا يتكلمون عن الشرف، وهم لا يعرفون معناه، يتكلمون عن الاخلاص وهم خائنون.. يتكلمون عن الحرية وهم عبيد، يتكلمون عن الكرامه وهم يسجدون لمن يدفع لهم؛ ثم يبذلون كل الجهد لايجاد أي ضعيف لكي يمارسوا عليه سلطتهم، ويجعلوه عبدا مثلهم، مخلوقات مريضة لا أعرف متي أو كيف أصبحوا علي هذه الشاكله؛ لكن من المؤكد أنهم لم يُخلقوا علي هذه الشاكله القذرة، لقد أصبحوا شخصيات مستغلة ضعيفة تجعلك تشمئز منها فور رؤية فكرها وطريقة تعاملها، هل يستوعبون أنهم أصبحوا كائنات لزجه تأنف

أن تنظر إليها..؟، إنهم لا يهتمون ولا يشغل تفكيرهم غير أن يستمروا في الحياة حتي ولو استمروا بهذه الشاكلة القبيحة.

لا أدري لماذا أربط الآن بين ما يحدث وبين ما رأيت فضل الجناينى يفعله، كان يقتلع النباتات الضارة، يحرث الأرض ويسويها من أجل بذور جديدة صغيرة ونشطة تأخذ دورها، وحظها في الحياة، لم يكن يدري أنه يصنع ثورة في نسق الحديقة، وأتذكر كيف كنا نمحوا خطوطا أساسية في الرسم الهندسي للمشروع لنضع مكانها خطوطا أخرى جديدة رأيناها أفضل من الخطوط القديمة، لا شيء في حياتنا له القداسة، ألم نكن نحن نثور على أوضاع فنهدمها؟، ونرضى عن أوضاع فنقيمها وندعمها؟، فلماذا ننكر على من ولدوا أحرارا حريتهم ونريد أن نجعلهم ميراثا وعقارا؟!

النهار يُحتضر، البدر يُغسله الليل ويكفنه، الدمع يشيعه وكأنه لم يمر على بشر، غاب الصواب في زمن الخطأ، والمكان الخطأ، والأرواح تتسابق في نقض الفكر.. ماذا بأيدينا كي نسترجع السمع؟ كي نسترجع البصر، والزمن الصحيح، والبشر؟، في ظل غير ساكن يلهث ملتهبا ولا يستقر على الأرض، الظل كان لأمه وهو يراها كنجمة لامعة متألقة في جو السماء، يحملها جناحٌ من جمال وآخر من شرف، لم تزل حتى تشحب وتضوي فزعا وحزنا، عيناها كتابان من حكمة علمت القلوب كيف تصفو، وكيف تمحو..

تملك صدرا رحيما يكتنز البهجة والحنان، مترعا بشغف العطاء وأحلام الأمومة، لم يزل يرصدها مشدوها مأخوذا، يرعاها رعاية الناسك للنجوم، يراها تعبر الغيم كأنها نيزك، تود من كل قلبها أن تأخذ بيده لتخرجه سليما معافا مما يحيط به، ومما هو قادم في مسطور الغيب على جبينه..

طلق يُدَوِّي له وقع وأزيز البركان، غطى المكان ريش متفحم مضرج بلون الشفق في الغروب، انفسح الغبار عن عرش شاغر سلم الروح والجسد، بعدما سلم السلطة والصولجان، شظايا تقتحم الرواق حوله، أحسها نارا تمتزج بطيف من أحب، وبمن تفاني في خدمتهم ضد الدين وضد القيم، وفي ذات الوقت كان ضد الشعب ومصلحة الوطن، كشف حساب طويل، هو في حفرة تضيق عليه وتلتهب لتصهر لحمه وتذيب عظامه كما فعل بالناس في أقفاص جهنم (التوابيت، كانت أمه تنفث بخار روحها الطاهرة في كف عاشقها، تنتظر قبلة الحياة لتنهض تغلبها السكرة والوجع، ولم تزل مغلوبة تريد، ويأبى القدر.

خلع قميصه الخارجي، ونزع من على عينيه نظارته السوداء؛ ولم يهتم بالألم الذي ينتشر في سائر بدنه، لم يفكر فيه طويلا، اعتمد على رفع روحه المعنوية بتلاوة آيات من القرآن الكريم، وبعزيمته التي لم تعرف الوهن لحظة، كانت لديه رغبة قوية في قطع أسباب

اليأس الممسك به والمهين له، اهتز بعنف لكن سرعان ما تماسك ووضع كفه اليمنى في كفه اليسرى وشد على بطنه بقوة ليسكت ما بها من صراخ معوي، يعلم تماما أنه صراخ نفسه المحاصرة والمنهارة.. تتالت وتحشرجت في صدره موجات رعب لم تمر به من قبل، استدعى طيف أمه لكنها لم تلب، وما عادت تظهر له، حينئذ فقط أدرك أن الدنيا على وشك أن تتخلى عنه؛ بل والآخرة. تقاطعت على ضلوع جسمه نظرات من عيون رحلت، عيون تتلمظ من أجل الفتك به، كانت نظراتهم مأهولة بوحوش الرغبة في مقارعة كؤوس الدم، وتصفية الحساب؛ فالألفة باتت مستحيلة، ولو كان العيد على الأبواب .

حط الظلام بثقله ولم يكن هناك ما يبدده، لملم أطرافه، ما انفرط من حواسه ومشاعره، نظر إلى المقاعد الخالية حوله تمنى حينئذ لو يسمع صوت أنين، أو حتى صوت سب ولعن.

"ترجل يا رجل، آن لك أن تعرج لتبيت في حضن لندن، وتصحو لتلبس ملابسك الجديدة؛ إنهم لا يزالون في الميدان يصمدون، ينشدون، يهتفون، يرسلون للدنيا رسائل جديدة ومثيرة تحمل أمرًا شعبيًا لا رجاء فيه: إما الحياة كريمة، أو الموت شهيدا.

آه؛ "الغوغاء"، يطلبون الحياة أو الموت هكذا وأنا هنا أطلب الموت على مقاعد الجبناء..!، لا.. سأترجل وأمشي، أمشي كما الحبيب

إلى الحبيب.. "احتدمت لديه الرغبة في النوم ليريح بدنه وأعصابه قليلا، يعيدا عن أي نشاط" "نوم المتوتر الجائع كنغم النشاز" تساءل:

- هل تمد لنا دنيانا يدها، أو حذاء السندريلا لتجدد فينا الأمل وماء الحياة؟

لفحته نسمة رومانسية غريبة عليه، غير مناسبة لحاله، وزمانه، قال لنفسه:

- كنت سأختار الورود لأنسقها تيجانا في جدائل شعر من أحب، كما كنت سأنشئ شرفات للغرام على واجهة كل بيت، أطلب للزواج الشباب، أساعد فقيرهم ومحتاجهم.

أطل عليه من خلف ستارة النافذة الشرقية وجه يعرفه تماما إنه وجه "مصطفى" ابن أخته الشاب الفقير الثائر عليه دائما، لم يتكلم، فقط كان يضحك ويغيب، ثم يأتي فيضحك ويغيب، كم تمنى "أبو البقاء" أن يكلمه ابن أخته، أن يقول له شيئا، كأنه اكتفى بما يقوله أمثاله في ميدان التحرير وسائر ميادين مصر، كم تيممنا من تراب الوطن في الحب والحرب، صحيح، وكل شيء مع الحب ممكن، كما أنه قد صح أن من رحم الظلم تولد البغايا، تصطف طوابير القوادين، ما إن غفا حتى سمع صراخا وعويلا:

- حريق، حريق..

أفاق وجد نفسه على السرير والفراغ ملء يديه، سمع من يهمس له:

- "انتبه لأول الدرب،لا أحد يسافر وحده..

صوت من زمن غائم يعصف بكل التواريخ.. نخلة تهتز بجذعها شبه المقدس.. نهر يرفض الأوامر ويمشي عكس الاتجاه..

غضب الفقراء لم يعد "تسلية" ولا هباء، والمعنى فيما يجري يتحول بوابة للقادمين العابرين بأحلامهم وأحلام أبنائهم.. دربا للسائرين سكارى وما هم بسكارى عنوانا لطلاب الحياة.. لقد تعرى زمن الأناقة، وبانت كل السوءات، وامتقعت كل وجوه النجوم في أفق المحروسة، نعم.. لم تكن غائبة عنا كل السهام.. حتى تلك التي اطمأنت ساكنة في كنائنها.

من الجنوب إلى الجنوب، ومن الشمال إلى الشمال تركض الأرض متفجرة.. لا تقولوا: قدرا.. إنها الأبجدية الحاكمة، وما تفعله بنا..

في الحب، هي قصة غرامية جميلة بقلم مؤلف لا يحترم العشق؛ لكنه مؤلف جائع لنهش الجسد الذي أحب، بل والذي أخرجه من رحمه.. وفي الأمال، وشطحات الخيال: فماهي إلا صكٌ وُقِّعَ على أرواح شعب لا ينبغي له أن يتنفس..

وفي السياسة: هي أبجدية أخرى أكثر أنانية، ووحشية؛ ففيها عملية مونتاج يُتَخَيَّلُ فيها المقص الوحشي في شريط سيناريو الوجود كله ليقطعه في عدة لقطات معظمها لا ينتمي للواقعية قدر انتمائه للهوى ،والرغبة ، والنزوة.. ما العمل يا نفري؟...

لم يعد يرى أبو البقاء شيئا واضحا، أو يوضح له ما يجري على الأرض بسرعة البرق، وضبابية الغيم. فَوْضَاهُ التي خطط لها مع حواريه وأفراد شبكته وساسة لهم ثقلهم تتمدد الآن بغير جزْرٍ، بل وتفيض بغزارة رهيبة لتملأ حروف أبجديتها روحه حتى الحلقوم، وتجرف معها كل ما تبقى من صمود وصبر.. تساءل حائرا:

- هل تغيرت الموازيين؟ وكشفت العدالة عن ضعف نظرها؟

عريانا بدا، ولا خيوط غزل الدنيا تستطيع أن تكسوه الآن.. إنه كـ نرجسة انكفأت على نفسها تبحث في طبقات وطبعات ورقها عن اسم له أحبه وخدمه؛ وعن أفراس ولو غير أصيلة لتجر له العربه، وتفتح له طريقا يبدو غير موجود ليعبر سالما..

وقف أمام مرآة بطوله ليعترف لقضاة من صنع خياله: أن الفوضى التي نفث فيها من روعه هي التي تحدث الآن على مستوى الوطن لكن على غير مافي النفس والهوى، "تولد الكوارث من رحم الأخطاء والأنانية، ومنها أن يغفر "المخلوق للخالق، سبحان الله للواثقين الشك؛ لكن للريح شكيمة". فتش عن لجام في يديه فلم يجد غير فراغ وخطوط يستطيع طفل صغير يتهجي أن يقرأ فيها كل ماتحمل من نبوؤات ومعانٍ، وقد تجاهلت الأبجدية في كفه تاريخ نضاله، وكفاحه مع النظام، ومكوناته، أخذ المكان يضيق عليه ويضيق، ولم تعد لديه المقدرة على استيعاب ماحدث ويحدث، وفقد مقدرته

على التهجي. الساحة تغص بلعبة شد الحبل مابين النظام الحاكم، ورجاله في ناحية، وأفراد أشداء مستميتون في اللعبة من أفراد الشعب، هؤلاء يتوسمون في دعمَ ضواريهم، وما تبقى من بضاعتهم وتجارتهم في الجوع الضارب في بطون الأحياء، وشعاب الأسواق، أما هؤلاء فقوتهم الحقيقية في ثبات أقدامهم، ودفء قلوبهم، واسترخاصهم الدم المسال ثمنا.

النفوس في كل فريق موتورة، ومشحونة بمكونات الصدمة والمرارة، وتحين الفرصة للثأر والانتقام لحسابات في الماضي والحاضر والمستقبل، نهض فإذا بساقه تخذله، راح يجرهها جرا ويأخذ معها بأطراف السجادة، تماسك متشبثا بكبرياء العظماء والسلاطين فمنع دمعة كادت تفر وتفضح ضعفه، وهوان نفس عزيز ذل.

تقدم إلى شرفة أمامه كانت دوما مصدر أنسه وسعادته لما تطل عليه من مناظر خلابة ومغذية للروح؛ ولما فيها من عدة أقفاص لعصافير نادرة لا تفتأ عن التغريد والتسبيح..

أزعجه بل أخافه أنه لم يجد غير الصمت المطبق، والمقبض، وأن الغصافير قد هجرت أقفاصها، واتخذت مواقع حرة على أفنان الأشجار، وأسلاك الاتصال، زفر ضائقا متعصبا، طبعة النهايات في حدائق الشر، ومعاقل الظلم والاستبداد..

نظر بعيدا وقد كشف الله غطاءه ليرى ببصره ما لم يره من قبل،

رأى التضاريس الثابتة في خريطة الوطن تغادر مواقعها، وجغرافيتها، رأى الخريطة تتغير، والتاريخ القريب يسقط أوراق روزنامته، كل شيء يساق بريح الثورة إلى مرافئ جديدة، ومنارات عهد أوعصر جديد فيه سبل العيش والحرية والكرامة مهيأة بالحلم المشروع، في حياة ملؤها العدالة والمساواة إلى جانب من المباهج والمسرات، ولمسات الحب والخير والجمال، غاظه أن ما يتكشف له تحت ظلال رموشه يتضخم، ويفيض، غاظه أكثر وأكثر أنه يعلم تماما أن ما يجري موسوما بالثورة وحلم العيش والحرية والكرامة الإنسانية ما هو إلا وهم كبير؛ وسيناريو رسم بعناية للمنطقة بأسرها، سينتبهون يوما ليجدوا أنفسهم في واقع لم يتخيلوه ولم يرسموه؛ إنهم سيبكون أنفسهم كما يبكون اليوم على شهدائهم، دماء مدفوعة بلا مقابل، ليتهم ينتبهون الآن ويوفرون للوطن ولأنفسهم كل هذا الهدر.

أرادوها فوضى خلاقة على مستوى الشرق وها هي ممثلة في ثورة الربيع غير العربي، ضم راحتيه وفركهما بقوة، تحرك عكسيا مغادرا المكان وقد التقط بالطو ثقيلا لشعوره ببرودة نافذة ركب سيارته يقودها بنفسه، اطمأن على تذكرة الطائرة، وعلى جواز سفره، اللآن يتوجه إلى المطار لمغادرة اللاد مثله مثل نواي، وقادة أزعجتهم الثورة، خوفهم زئير الثوار في ميدان التحرير رن هاتفه من لندن..

- آلو.. أهلا بهيجة.. طمنينا عن الأحوال عندكم.
- كله تمام ياحاج، المريض على وشك مغادرة المستشفى ولقد عرفت كل شيء عن زوجتك السابقة في الشرقية، الوقت لا يسمح ولأن الدكتورة إيمان بعلمها وأدبها جعلتني أسامحك
- ماذا؟.. انكشف كل المستور؟
- نحن في انتظارك لتكتمل الفرحة، فيه خبر يسعدك كمان.
- خير؟
- رشدان يكلمك عنه لأنه يخصه.
- السلام عيلكم يا باشا
- عليكم السلام، ومادام قلت ياباشا فالخبر فعلا سعيد، خيرا يا دكتور
- برغم أن صوتك حزين إلا أني الآن سأغير طبقته ونغمته.
- تفضل يا ولدي..
- إيمان.. الدكتور إيمان تفاهمت معها على الزواج، وفي انتظار حضرتك لنبدأ إجراءات إتمامه..

صمت الأب هنيهة مفكرا في قريبةالوزيرة لكنه سرعان ما تدارك الموقف واستأنف:

- ألف مبروك يا دكتور، اخترت الصح والدائم والدكتورة إيمان صح الصح، تربيتي، غدا أكون بينكم إن شاء الله..

– شكرا أبي وربنا معنا ومعكم وتعدي على خير.

قال متنهدا:

– ياليت.. سلام

ألقى بهاتفه على المقعد المجاور له وعلى خط الأفق أمامه وضع تاريخ حياته، وعضويته.. قرأ ما قرأ، واستوعب ما استوعب، وتذكر كيف كانوا يعدون رقعة الشطرنج فيما بينهم في غرف كالأندية إلا أنها أندية مقصورة على نوعية معينة من الأعضاء، لا تنتهي اللعبة ألا والجميع يحافظ على الملك بكل ما يملك من ذكاء رأس، وخطط لعب، وقوة انتماء.

كانوا يتبادلون الأحلام كما يتبادلون الأنخاب.. مؤجلة وغير مؤجلة مشروعة، وغير مشروعة، وكانوا يحرصون على أن ترافقهم إلى غرف نومهم لا يريدونها تعادرهم ليستمتعوا بمضاجعتها كل تحت سقفه، وبحسب طقوسه وهواه؛ لم ينتبه أي مسؤول في أي موقع إلى ارتفاع موجات اليأس والغضب الشعبي تتسع، تعلو وتتعمق في كل ناحية، ومن كل اتجاه. تبسم ساخرا من حكمة – غير مقصودة – قالها أحد أعضاء الحزب الحاكم.. قال:

- إن من يموت لأجل هؤلاء الناس لن يموت أبدا.

وهاهو الموت آتٍ؛ وبكل الذرائع، الذكي من لا يموت بعيدا عن هذه

المأدبة التي طلبها المناضلون من ربهم؛ ليأكلوا منها، وتطمئن إليها قلوبهم ؛ ولتكون لهم عيدا لأولهم وآخرهم، وآية منه سبحانه. تحسس أطرافه وأعضاءه كانت كلها تشي برغبة غامضة، وغائمة في التسليم والهرب، لكنها كانت تترنح وتتخبط بسدود يقيمها حوله الخوف من سوء العاقبة، ولما في ماضيه من مقدمات غير إنسانية، وديْن دمٍ لا يسده غير الدم، توقع ألا يرى بعد اليوم صديقا واحدا.. الفوضى "الخلاقة "أفرزت وحوشا، وأعداء حتى ممن هم في خيمة القرابة..:

- أليست هذه العيون النارية هي عين مصطفى ابن أخته؟ لا.. لا كأني أرى وجه ابني سامي بينهم هنا.. ولم لا؟.. وهذه أصوات بالبصمة الوطنية من أولاد وأحفاد أبو سويلم؟، وهذا حديث فضيلة الشيخ الشعراوي:

- "البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، فكن كما شئت، فكما تدين تدان"؟؟

وتلك صرخات الثكالى والأرامل واليتامى في حوادث الطرق والغرق والحرق أصوات لها خطاطيف، وكُلَّابات كما في جهنم، فاض به بوح المحاصر، والمحاط به مع إحساس بأنه قد غرر به، وممن؟.. من الأدلاء، والمرشدين. صوت واحد ربت مشاعره، وطيب خواطره؛ إنه صوت المعاق ابن أخيه (مرتضى)، وكأنما دموع الفتى في

جوفه "برد وسلامة"، لكن.. هل له أن يعترف كمن يطلب الغفران؛ بأنه كان ممن فتنتهم الشهوة، السلطة، المال، المبالغات، المجاملات، وأنه كان كان يصدق ما يقرأه في صمت الكبراء، إشارتهم تصديقا أعمى لا لشيء إلا لأنه يوافق ما بنفسه الأمارة بالسوء، وباتباع الهوى. لم يكن يفزع لهامة وطن كبير انكسرت في مقعد شاغر وهو يرى كأنه ممتلئ، ثم تتالت الانكسارات، المقاعد المهمة كلها تقريبا شاغرة، يد خفيفة تربت كتفه، انتبه للمضيفة، طلب عصيرا باردا.. نبهته لربط الحزام فنحن الآن فوق مطار هثرو، نظر لمن حوله في الدرجة الأولى فإذا هم وزراء، نواب الفساد دخلت عليهم ريح الثورة في أعشاشهم فهيجتهم وأعطتهم أجنحة للهروب بأنفسهم، تبسم، وربط الحزام..

ساجيا.. جاء الليل محمولا في الغرابيل.. حالكا مدلهما يطرد الضياء من الأرض، ويعمق من جذور الخوف، وينادي بملء فيه: "ماعندنا عرائس أغراهن "أبو البقاء" ماعندنا بقاء.!!!

من تراب الفراعين هبَّ مترنحا تحت قبة الفوضى ؛ وغيرهُ قد خرَّ تَعِبًا.. أو راح هباء.

تمت بحمد اللّه ويليها الجزء الثاني

بقلمي/ محمد الشطوي المحلة الكبرى (ج م ع)

٠١٠٩٠٦٦٧٨٤٥ هـ.....٨١